العنوان:	تحول صورة معاوية في كتب الطبقات و التراجم
المصدر:	أعمال المؤتمر الدولي الأول : النخب والسلطة السياسية في العالم العربي الإسلامي من خلال كتب الطبقات - كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة - تونس
المؤلف الرئيسي:	لاغة، محيي الدين
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2012
مكان انعقاد المؤتمر:	تونس
رقم المؤتمر:	الأول
الهيئة المسؤولة:	جامعة منوبة
الصفحات:	321 - 354
رقم MD:	623613
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	كتب التراجم، التاريخ الإسلامي، العصر الأموي، معاوية بن أبي سفيان، معاوية بن صخر بن حرب، 20 ق. هـ-60 هـ.
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/623613

تحول صورة معاوية
في كتب الطبقات والتراجم

محي الدين لاغة
كلية الآداب – سوسة

التوطئة:

تُعتبر كتب الطبقات والتراجم مصدرا غنيا بعيد الأهمية لدراسة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لتاريخ المسلمين كما تعترض الباحث فيها معلومات غزيرة حول مسائل السكان تُعد من العلوم المعاصرة؛ فمن هذا النوع من المصادر انطلق بعض الباحثين، منهم الأستاذ عمر بن حمادي، لتناول جوانب تدخل ضمن خانة الديمغرافية التاريخية[1]. غير أن أهمية كتب الطبقات والتراجم الرئيسية تبقى في كونها مصدرا لدراسة الجوانب السياسية باعتبارها تسلط الضوء على الشخصيات الفاعلة في المجتمع، أي على النخبة.

ولأنّ معاوية بن أبي سفيان من الذين لعبوا دورا خطيرا في مرحلة صدر الإسلام يُلاحظ مُستقرئُ تراجم أعيان المسلمين أنه من الشخصيات الأكثر ذكرا نقدا وانتقادا/ مدحا وذمّا؛ هذا إلى جانب الأحكام المتناقضة في شأنه في المصادر المختلفة الأخرى ولا سيما في كتب الأنساب والتاريخ العام. ولهذا يبقى هذا العَلَمُ/ الرمز جاذبا لانتباه البحثين. وقد تتابعت الدراسات حول دوره قائدا سياسيا أو غازيا للبحر[2]. كما لفتت الروايات الواردة في شأنه في تاريخ ابن عساكر انتباه بحوث أخرى نذكر منها مقال لسعيد الأفغاني حول "معاوية والأساطير" استعرض فيه إلى ما اعتبره أحاديث موضوعة من قبل الرواة الشاميين لفائدة معاوية والأمويين وردت بشكل خاص في مخطوطات من تاريخ ابن عساكر اطلع عليها صاحب المقال بالمكتبة الظاهرية قبل نشر

---

[1] - عمر بن حمادي، كتب الطبقات ومشاكل استغلالها في أبحاث الديمغرافية التاريخية، ضمن بحث جماعي بعنوان الديمغرافية التاريخية في تونس والعالم العربي، تونس، دار سَراس للنشر والمعهد الأعلى للتكوين المستمر، 2002، ص 5- 25؛

Pellat Ch., Peut-on connaitre le taux de natalité au temps du prophète? A la recherche d'une méthode, *J.E.S.H.O.*, XIV/2, 19771, p 107- 135; Du même auteur, Quelques chiffres sur la vie moyenne d'une catégorie de Musulman, *Mélange d'Islamologie (Mémorial Abel A.)*, Leyde 1974, p. 233- 246; Urvoy Dominique, *Le monde des Ulamas andalous du V/XI eme au VII/XIII eme siècle*, Genève 1978.

[2] - حياة عمامو، معاوية والبحر....؛ Lagha M., Le premier traité des musulmans en méditerranée, Mawarid, n° XVIII, 2012

الكتاب بأكمله لاحقا[1]. وفي نفس السياق تناولت بثينة بن حسين "صورة معاوية بن أبي سفيان من خلال ابن عساكر" ركزت فيه على محوريْن اثنيْن الأول رصْدٌ لصورة معاوية في المصدر/المُنطلق والثاني ركزت فيه على الإطار العام الذي تبلورت فيه تلك الصورة[2]. وإذْ نتفق مع الأفغاني وبثينة بن حسين في لاتاريخية الكثير من الأخبار الواردة في ابن عساكر حول معاوية فإن المنهجية التاريخية تقتضي بأن ننظر إلى ما جاء في تاريخ دمشق في إطار أوسع في الزمن، وأن نُقيم رواياته على أساس كونها ليستْ غير تطور لما جاء في تراجم سابقة وأنها كانت مصدرا لروايات لاحقة.

وقادنا التقييم السابق إلى ضرورة تتبع صورة معاوية انطلاقا مما جاء في كتب الطبقات الأولى ابتداءً من القرن الثالث للهجرة انتهاءً إلى تلك المؤلفة في نهاية التاريخ الوسيط. وبما أن الذي يعنينا بالأساس هو القيمة التاريخية لما يأتي عن معاوية من تراجم فقد جاء المحور الثاني من البحث في شكل مقاربة لما يأتي من معلومات تاريخية عن معاوية في كتب الطبقات والتراجم بنظيرتها الوردة في المصادر التاريخية.

1- تطور صورة معاوية في كتب الطبقات والتراجم:

1-1: كتب الطبقات الأولى القرن الثالث: تركز على ما هو تاريخي

وردَ ذكر معاوية بن أبي سفيان في عشرات المواضع من طبقات **محمد بن سعد** (ت230 هـ/844م)، كما ضمنها ترجمة مقتصرة له ذكر فيها نَسَبهُ. وأسند إلى معاوية ذاته أنه أسلم أثناء صلح الحديبية، وهو أمر فيه اختلاف، لكنه كتم ذلك تفاديا للمواجهة مع بيته وخاصة أبيه، فلم يصرح بإسلامه إلا بعد فتح مكة. وأشار ابن سعد إلى قرار الرسول اتخاذ معاوية كاتبا وذكر مشاركته في معركتيْ حنين والطائف ثم ولايته على الشام أثناء خلافة عمر، ولاية توسعت في عهد عثمان وتواصلت عشرين سنة ليُصبح بعدها خليفة لنفس تلك المدة[3].

أما ترجمة **خليفة بن خياط** (ت854/240) لمعاوية فقد جاءت مُقتضبة إذْ اكتفى بالإشارة إلى نسبه وكنيته وتاريخ وفاته، وذلك عند استعراضه للطبقة الخامسة من الصحابة الوافدين على الشام[4] .

ويتضح من السابق أن كُلا من ابن سعد وابن خياط لم يُشيرا لغير المعطيات التاريخية. بماذا يُفسر ذلك؟

---

[1] - سعيد الأفغاني، معاوية والأساطير، عمان، أعمال المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام بالجامعة الأردنية 20-25 سبتمبر 1974، ص 39-55

[2] - بثينة بن حسين، صورة معاوية بن أبي سفيان من خلال ابن عساكر، أعمال ندوة " الكتابة التاريخية في العصر الوسيط، من الخبر والرواية إلى النص والوثيقة"، أشغال الملتقى الدولي السادس لمخبر العالم العربي الإسلامي الوسيط، تونس، 28-30أفريل 2010، ص 241- 269.

[3] - محمد بن سعد (ت230 هـ)، الطبقات الكبرى، بيروت، دار الكتب العلمية، تحقيق محمد عبد القادر عطا، 1990، ج 7 ص 285.

[4] - خليفة بن خياط (ت240هـ)، الطبقات، تحقيق أكرم ضياء العمري، بغداد مكتبة العاني1967، ص 297 ، 298.

إذا كان الحذر من سلطة العباسيين والتخوف من ردود فعلهم واردا في حالة روايتهما لمواد تمتدح معاوية، خاصة أن المصادر تذكر استجابة ابن سعد لضغوطات المأمون وإقراره بمسألة خلق القرآن[1] كما تذكر ما عرفه ابن خياط من معاناة زمن المأمون بسبب عدائه للمعتزلة[2]، غير أن السبب الأقرب إلى تبرير تركيز كليْهما على الأحداث التاريخية هو الإطار العام لتطور الرواية التاريخية عند المسلمين في القرن الثالث؛ إذْ مازالت الرواية في جملتها متينة الترابط بتناقل أحداث السيرة، ومازال تناول تاريخ الأشخاص متصلا شديد الاتصال بعلاقتهم بالنبي وبأحداث صدر الإسلام. وللتذكير فإن كلا من بن سعد وابن خياط بصريا الأصل وانتقلا إلى بغداد وأمضيا بها أغلب حياتهما، كما يشتركان في تجميع القسم الهام من معرفتهما للسيرة وتاريخ من الصحابة والتابعين أصيلي الحجاز؛ ولهذا اعْتُبرَا أقرب إلى مدرسة المدينة في الرواية من المدارس الأخرى وخصوصا المدرسة الشامية.

وقد انعكس ذلك بالضرورة على منهجهما حين جمعا تراجم الصحابة، إذْ نلحظُ لدى ابن سعد وكذلك ابن خياط ميلا واضحا لدمج المعطيات التي يوردانها عن تراجمهما بالمعلومات التاريخية المناسبة لزمانهم لكن دون تضمينها مواد غير تاريخية؛ بذلك تبدو التراجم وجها من وجوه التواصل مع السيرة. ولا يفوتنا هنا التذكير بأن أكثر من باحث يعتبر ابن سعد آخر جامعي السيرة من المتصلين بالمصادر الأولى وثاني مؤلف بعد ابن إسحاق وصلنا كتابه في السيرة والطبقات كاملا[3]. ويُمكن سحب ذلك الحكم على ابن خياط أيضا، بما أن جل مصادر معلوماته مُستمدة من أصحاب السير، وإن جاءت المعلومات التاريخية التي يذكرها مقتضبة جدا في غالب الأحيان.

لكل ذلك جاءت الأخبار الواردة لديهما عن معاوية مُقتصرةً على ما تم تناقله عن نسب معاوية وعلى أهمّ ما قام به من أعمال خلال الفترة المحمدية وبعدها. يبدأ الحديث عن فضائل معاوية مع **البخاري**(ت869/256)، المعاصر لابن سعد وكان يطلع على ما لديه من كتب حسب الخطيب البغدادي[4]، فهو

---

[1] - شمس الدين الذهبي (ت 742 هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، بيروت، دار الكتاب العربي، تحقيق عمر عبد السلام التدمري 1992، ج 15 ص 21؛ أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت 774)، البداية والنهاية، بيروت، دار إحياء التراث، تحقيق علي شيري 1988، 10 ص 298، 299؛ Brinner W. M., Ibn Saâd, *Ency.de l'Islam (EI2)*, nouvelle édition (*E.I. 2*), Leiden Brill, vol. I, pp. 946-947.

[2] - Zakkar S., Ibn Khayyat al-Usfûri, *E.I.2*, vol. I, pp. 862- 863.

[3] - جوزيف هوروفيتس، المغازي الأولى ومؤلفوها، القاهرة، مطبعة الحلبي، ترجمة حسين نصار، ص 126- 132؛ عبد العزيز الدوري، نشأة علم التاريخ عند العرب، الإمارات العربية المتحدة، مركز دراسات زيد للتراث والتاريخ، 2000، ص 32؛ محمد الجوادي، كتاب الطبقات الكبير لمحمد بن سعد، أعمال ندوة " الكتابة التاريخية في العصر الوسيط، من الخبر والرواية إلى النص والوثيقة"، ص51- 105.

[4] - الخطيب البغدادي (المتوفى: 463هـ)، تاريخ بغداد، بيروت، ت بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي 2002 م، ج 3 ص 268.

أول من أدمج في تاريخه رواياته أحاديث منسوبة للرسول تمتدح في جملتها معاوية[1]: نقل حديثيْن منسوبين للرسول: "اللَّهُمَّ عَلِّمْ مُعَاوِيَةَ الحِسَابَ وَقِهِ العَذَابَ" و" اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا وَأَهْدِهِ وَأَهْدِ بِهِ" وقولا منسوبا لابن عباس "ما رأيت أحدا أخلق للملك مِنْ مُعَاوِيَةَ"

أما أحمد بن زهير المعروف بابن **أبي خيثمة** (ت279/892) فقد راوَحَ في كتابه التاريخ الكبير بين ذكر مزايا معاوية عندما اعتبره ضمن "المؤلفة قلوبهم" وبين تصنيفه ضمن دهاةُ العَرَب الأربعة، إلى جانب عَمْرو بْنُ العاصي والمُغِيْرَةَ ابْنُ شُعْبَةَ وزيَاد بن سمية (أو ابن أبيه)، واتهامه بتأسيس دولة "هِرَقْلِيَّةَ تورث الأبناء"[2]. ولا يُستبعد أن يكون انتقاد ابن أبي خيثمة لسياسة معاوية ناتجا عما عُرف عنه من ميولٍ قدرية وعلاقة وطيدة بالوزير العباسي علي بن عيسى المعروف بابن ماهان[3].

* خلال القرنيْن الرابع والخامس تحولت صورة معاوية بصورة عميقة:

فقد كرر **البغوي** المتوفى في بداية القرن الرابع(ت317/929) الأحاديث التي نقلها البخاري: " اللهم علمه الحساب والكتاب وقه العذاب" والدعاء لمعاوية بأن يجعله "هاديا مهديا" وكذلك الحديث المنسوب لابن الخطاب "ما رأيت رجلا بعد رسول الله (ص) كان أسود من معاوية "[4]. ويظهر أن البغوي كان أولَ من أورد خبر إسلام معاوية "عام القضية" (السنة السابعة للهجرة) وليس سنة صلح الحديبية كما جاء في رواية محمد بن سعد. لكن أبرز إضافة هي كونه الأول ممنْ أورد الرواية التي يتنبأ فيها أعرابي بأن معاوية "سيسود قومه"[5]. ومع ذلك تبقى السمة الأساسية لترجمة معاوية في معجم البغوي هي الاختزال والاقتضاب، وهي الملاحظة ذاتها في مختلف تراجم القرن الرابع الأخرى مثل ابن أبي حاتم وابن حبان في كتابه الجرح والتعديل ومشاهير ابن حبان البُستي ومعرفة الصحابة لابن مَنْدَه، التي لا نجد فيها غير تأكيد على مسألة صحبة معاوية[6].

[1] - محمد بن إسماعيل البخاري (ت256)، التاريخ الكبير، حيدر آباد – الدكن، دائرة المعارف العثمانية، د ت، ص 326، 327.

[2] - أبو بكر أحمد بن أبي خيثمة (المتوفى: 279هـ)، التاريخ الكبير المعروف بتاريخ ابن أبي خيثمة، القاهرة، تحقيق صلاح بن فتحي هلال، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، 2006، 1 ص 2 ص 23، 55، 70،

[3] - Pellat Ch., Ibn abi Khaythama, *E. I.2,* vol. I, pp. 708- 709.

[4] - عبد الله بن محمد البغوي (المتوفى 317هـ)، معجم الصحابة، الكويت، تحقيق محمد الأمين بن محمد الجكني، مكتبة دار البيان، 2000، 5ص 364، 367، 369.

[5] - البغوي، نفس المصدر، 5 ص 363، 365، 368.

[6] - عبد الرحمن بن محمد ، ابن أبي حاتم (المتوفى:327هـ)، الجرح والتعديل، بحيدر آباد الدكن – الهند، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، 8 ص 377؛ محمد بن حبان، البُستي (المتوفى: 354هـ)، مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار، المنصورة، ت مرزوق على ابراهيم، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 1991م، ص 86؛ محمد بن إسحاق بن مَنْدَه العبدي (المتوفى: 395هـ)، معرفة الصحابة، جامعة الإمارات المتحدة، ت عامر حسن صبري، 2005، ص 953.

وخلال القرن الخامس أعاد **أبو نعيم الأصبهاني** (ت 1037/430) [1] الأفكار التي أصبحت معهودة في زمنه، فاستعرض الروايات المتصلة بتاريخ إسلام معاوية محددا ذلك" أَسْلَمَ قُبَيْلَ الْفَتْحِ، وَقِيلَ: عَامَ الْقَضِيَّةِ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِي عَشْرَةَ" ممتدحا معاوية بكونه مِنَ الْكَتَبَةِ الْحَسَبَةِ الْفَصَحَةِ" وبأنه "كَانَ حَلِيمًا وَقُورًا فَصِيحًا" زيادة على اعتباره (معاوية) من قِبل ابن عباس كواحد من فقهاء المسلمين وهو ما يبرر سلطته كمحدث روي عنه عدد كبير من الصحابة والتابعين. غير أن أبرز إضافات لأبي نعيم، والتي قد تدخل في إطار الدعاية أو الفضائل، هي إيرادُه لمجموعة من الأحاديث والشهادات التي تؤكد على كفاءة معاوية السياسية وقدرته على إدارة شؤون الدولة. في هذا الإطار أعاد أبو نعيم قول عبد الله بن عمر: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَسْوَدَ مِنْ مُعَاوِيَةَ» وعززه بحديث مطابق لذلك في المحتوى منسوب هذه المرة لابن عباس وخاصة كونه لم يرَ" رَجُلًا أَخْلَقَ لِلْمُلْكِ مِنْ مُعَاوِيَةَ". في ذات الإطار ذكر أبو نعيم أن معاوية" مَلَكَ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِشْرِينَ سَنَةً مُنْفَرِدًا بِالْمُلْكِ" في إشارة لكفاءته.

وعزز أبو نعيم الشهادات السابقة بحديث جاء على لسان معاوية ذاته "مَا زِلْتُ أَطْمَعُ فِي الولاية مُذْ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ (ص): يَا مُعَاوِيَةُ, إِذَا مَلَكْتَ فَأَسْجِحْ"، وقولا لخصمه اللدود خلال الطور الثاني من الفتنة الكبرى علي بن أبي طالب بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنْ صِفِّينَ: «لا تَكْرَهُوا إِمَارَةَ مُعَاوِيَةَ، وَاللهِ لَئِنْ فَقَدْتُمُوهُ لكأني أَنْظُرُ إِلَى الرُّؤوس تَنْدُرُ عَنْ كَوَاهِلِهَا كَالْحَنْظَلِ».

من جانبه ذكر **ابن عبد البر القرطبي** (ت 1070/463) [2]، خلال نفس القرن، اندماجه (معاوية) في المنظومة الإسلامية باعتباره وأبيه من"المؤلفة قلوبهم" مع تركيز بين على استعراض تنامي دور معاوية السياسي في عهد عمر بن الخطاب.

أما **الخطيب البغدادي**، المتوفى في نفس السنة التي تُوفي فيها القرطبي، فقد ركز بصورة خاصة في ترجمته لمعاوية على قدراته السياسية، وركز بصورة رئيسية على نجاحه في ضمان ثقة الرسول وعمر بن الخطاب وعثمان وعلى نجاحه في توحيد دولة المسلمين عام الجماعة. ودعما لذلك أعاد الحديث الذي دعا فيه الرسول لمعاوية بالهداية كما أوردَ حديثا لصحابي (الربيع بن نافع) اعتبر فيه معاوية سِتْرا للصحابة[3].

---

[1] - أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، معرفة الصحابة، الرياض، ت عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، 1998، مجلد 5 ص 2496.

[2] - يوسف بن عبد البر القرطبي (المتوفى: 463هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، بيروت، ت م علي البجاوي، دار الجيل 1992م، مجلد 3 ص 1416؛ Pellat Ch., Ibn Abd al-Barr, *E. I.2*, vol. I, pp. 695- 696

[3] - الخطيب البغدادي (المتوفى: 463هـ)، تاريخ بغداد، 1 ص 574، 577.

ب: تضخم صورة معاوية في تراجم الوسيط المتأخر:

يعكس ما يجيءُ في تاريخ دمشق **لابن عساكر** (ت 571هـ/1176م) ذلك بجلاء[1]، بما أن الترجمة التي أوردها لمعاوية هي من أوسع التراجم المُتداوَلة. فقد نقل ابن عساكر عديد الروايات فحواها ذكاء معاوية وحلمه. وأعطى لإسلامه بُعدا "نضاليا"، ففي رواية ترقى إلى محمد بن سعد نقلا الواقدي ينسب إلى معاوية كونه أسلم عام الحديبية لكنه أخفى ذلك خوفا من أبيه. وتوسع ابن عساكر في مسألة اتخاذ معاوية كاتبا للوحي من قبل الرسول، ونقل في هذا الإطار أكثر من رواية أبرزها تلك التي تُفيد بأن استكتاب معاوية كان بوحي إلهي[2]:

ففي رواية أولى ترقى إلى هشام بن عروة، وتُعطي لأم حبيبة أخت معاوية وزوجة الرسول دورا معينا في عطف محمد على معاوية، أورد ابن عساكر الحديث "والله ما استكتبتك إلا بوحي من الله وما أفعل من صغيرة ولا كبيرة إلا بوحي من الله عز وجل". وفي رواية أخرى ترقى إلى أبي موسى الأشعري وهو يفسر سبب نزول آية الكرسي ذكر تنافس كثير من الصحابة على كتابة سورة آية الكرسي عند حلولها في الوحي غير أن الرسول أوكل ذلك إلى معاوية مبررا ذلك أيضا بوحي من السماء. وفي نفس الموضوع ينقل ابن عساكر روايات يبلغ فيها تبجيل معاوية مداه الأقصى عند نقل الحديث الذي يجعل من معاوية بن سفيان مستأمنا على الوحي تماما كما الأمر بالنسبة لمحمد. وتذهب نفس الرواية إلى اعتقاد الرسول أن الله كاد أن يبعث معاوية نبيا لكثرة حلمه وائتمانه على كلامه ولهذا غفر له ذنوبه "ووفاه حسابه وعلمه كتابه وجعله هاديا مهديا وهدى به"[3]. وهي أحاديث تذكر بالأحاديث المتواترة لدى بعض الفرق الشيعية عن علي بن أبي طالب.

في نفس الإطار نقل ابن عساكر صيغا عديدة و لا تختلف في جوهر معناها عما أورته المصادر السابقة للحديث الذي يدعو فيه الرسول بالهداية لمعاوية، أبرزها " اللهم اجعله هاديا مهديا وأهده وأهد به"؛ غير أن الإضافة الهامة لابن عساكر التي زادها هو أنه وضع هذا الدعاء في إطار تاريخي أدمج فيه أم حبيبة زوجة الرسول وأخت معاوية. وتجسيدا لثقة مصدر الوحي (الله عبر جبرائيل) وناقله ومتقبله (محمد) في معاوية يتوج الخبر الذي يرويه ابن عساكر بنبوءة الرسول بتولي معاوية الخلافة؛ وكان ذلك حينما رد الرسول بإيجاب على تساؤل أم حبيبة حول ما إذا كان سيكون لأخيها دور ما في زعامة المسلمين ("قميص")، وإنْ يُفهم من ذلك الحوار أن تصدر معاوية للحياة السياسية في مستقبل الدولة الإسلامية سيكون مصحوبا بجملة من

---

[1] - علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: 571هـ)، تاريخ دمشق، بيروت، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1995، 59 ص 69

[2] - ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 69، 73

[3] - ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 74.

تحديات[1]. وفي نفس السياق جاءتْ في تاريخ دمشق أحاديث عديدة تبشر بخلافة معاوية وتشرعها، منها الذي يُفيد بنبوءة الرسول توليه (معاوية) حكم الشام: " ليلين بعض مدائن الشام رجل عزيز منيع هو مني وأنا منه. فقال له رجل من هو يا رسول الله قال فقال... بقضيب كان بيده في قفا معاوية"[2].

وزيادة عن الأحاديث المنسوبة للرسول في هذا المجال أورد ابن عساكر روايات ترقى إلى شخصيات من الصحابة والتابعين تلتقي كلها عند فكرة كون خلافة معاوية للمسلمين هي أمر مُقدر بمشيئة إلهية، منها واحد ينسبُه إلى معاوية ذاته يبشره فيه الرسول بولاية أمته من بعده ويوصيه بحسن السيرة فيها؛ وآخر يرقى إلى ابن عباس عبر عنه أثناء الفتنة وفيه قناعته الراسخة بأن أمر الخلافة سيؤول حتما إلى معاوية، وحديث ثالث يرد فيه الحسن بن علي على منتقديه على تسليمه الخلافة لمعاوية سنة 41 بحرصه على تلافي التقاتل بين المسلمين مُحتجا في ذلك بما سمعه من أبيه نفسه بأن الحكم آيلٌ لا محالة إلى معاوية. وفي نفس السياق نقل ابن عساكر تأويلا يرقى إلى كعب (ولعله كعب الأحبار المعروف بتفسير الأحداث على ضوء الإسرائيليات) يقول أن حكم المسلمين بعد عثمان سينتقل إلى معاوية[3].

وجاءتْ في تاريخ دمشق أحاديث عديدة تشترك في تعظيم مكانة معاوية لدى الرسول، من ذلك تسميته بخال المؤمنين اعتبارا لصلة الأخوة بينه وبين أم حبيبة في واحدِ منها، وفي حديث آخرَ يعتبر حب معاوية فرضا على المسلمين، وفي ثالث يقول فيه محمد"إني أحب معاوية وأحب من يحب معاوية وجبريل وميكائيل يحبان معاوية والله أشد حبا لمعاوية من جبريل وميكائيل[4] .

وأولَ ابن عساكر أحاديث منسوبة للرسول على خلاف ما تذهب إليه التيارات المعادية للأمويين، منها ذلك الذي ينسب للرسول قوله "...إذا رأيتم معاوية على المنبر فاقتلوه "معتبرا في رواية أولى أن المَعني بالقتل هو معاوية بن تابوه المُتهم بالنفاق، وفي رواية ثانية يذهب إلى أن أصل الحديث هو "... إذا رأيتم معاوية على منبري فاقبلوه فإنه أمين مأمونٌ"[5].

وفي محاولة لإثبات دور معاوية في تركيز الدولة نقل ابن عساكر رواية ادعى فيها عبد الملك بن مروان بأن معاوية هو الذي قتل مسيلمة[6]، وهو خبر لم يرد في أي مصدر تاريخي.

---

[1] - ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 69: " فقامت أم حبيبة فجلست بين يديه فقالت يا رسول الله وإن الله مقمص أخي قميصا؟ قال نعم ولكن فيه هنات وهنات وهنات. فقالت يا رسول الله فادع الله له فقال اللهم أهده بالهدى وجنبه الردى واغفر له في الآخرة والأولى".

[2] - ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 91، 110.

[3] - ابن عساكر، نفس المصدر، ج 59 ص 123، 125، 151.

[4] - ابن عساكر، نفس المصدر، ج 3 ص 208، ج 14 ص 113، ج 59 ص 55،90، 103، ج 69 ص 148.

[5] - ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 157، 158.

[6] - ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 107.

كيف يُفهم تضخم صورة معاوية في تاريخ دمشق؟

لقد ألف ابن عساكر كتابه في ظرف متأزم كانت أبرز تجلياته تفتت الخلافة العباسية مع بروز حكم الإمارة الزنكية التي بسطت نفوذها على أغلب مناطق سوريا وحاول سلاطينها الظهور بمظهر الحامي للمذهب العامة في مواجهة المد الشيعي مُمَثلاً خاصة في مجموعات الحشاشين، ذراعهم العسكري في بلاد الشام، وفي الخطر الفاطمي القادم من مصر.

في هذا الإطار كانت المنافسة المذهبية أبرز مظاهر الصراع وكان الدفاع عن رموز السلف (ومعاوية منهم لدى أغلب الفرق السنية) أحد آلياته الفعالة. ولم يكن ابن عساكر، الذي كان من أبرز الفقهاء الشافعيين في زمنه، بمعزل عن تلك المواجهة بما أن استقراره بمدينة دمشق تم في ظرف اشتد فيه الصراع بين الزنكيين والحركات الشيعية المختلفة، بل أن تأليف كتاب تاريخ دمشق كان على ما يبدو بطلب من السلطان نور الدين بن زنكي ذاته والذي بنا مدرسة (المدرسة النورانية) وضعها على ذمة المحدثين الموالين لرواية الحديث وكُلف ابن عساكر بالإشراف عليها[1].

خلال **القرن السابع**: لاحت بوادر نقد الرواية: لم يُضفْ **عز الدين بن الأثير**(ت 1232/630) شيئا كثيرا عما جاء في كتب الطبقات وكتب التراجم السابقة، وتميزت ترجمته لمعاوية في كتابه أُسْدُ الغابة بالاقتضاب[2]. ذكر ابن الأثير بسرعة اندماج ابن أبي سفيان في نظام الدولة في الفترة النبوية وتوسع نفوذه ببلاد الشام في عهد الخليفتيْن عمر وأبي بكر ثم نجاحه في السيطرة على كامل الدولة عام الجماعة متوجا بذلك عشرين سنة من الإمارة ومُبتدئا عشرين سنة من الخلافة حسب ابن الأثير. إن الإضافة الوحيدة لابن الأثير في هذا الخصوص هي حسمه بأن إسلام معاوية كان سنة فتح مكة رغم إشارته (ابن الأثير) إلى ادعاء معاوية بأن إسلامه كان "عمرة القضاء" في السنة السابعة للهجرة.

ومع ذلك يبدو أن ابن الأثير، الذي كان مقيما بالموصل ومقربا من الأتابك السُنة، لم يكنْ بمقدوره التخلص التام من ثقل الصراع المذهبي الذي مازال على أشده؛ وهو ما قد يفسرُ إيرادَه لبعض الأحاديث المُمتدحة لفضائل معاوية والتي جاءت في الترجمات السابقة ولا سيما في تاريخ ابن عساكر مثل القول المنسوب للنَّبيِّ: " اللَّهُمَّ، اجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا" وقول عبيد الله بن عمر أنه لم يرَ " أسود من معاوية"؛ كما أورد ابن الأثير حديثا استدرك فيه الرسول دعاءه على معاوية بعدم الشبع بدعاء آخر يعترف فيه بأنه قد يغضب كعامة البشر ويرجو فيه أن يحول ذلك الدعاء إلى قُربان من الذات الإلهية[3]. لكننا مع ذلك

---

[1] - Elisseeff Ni., Ibn 'Asakir, *E. I. 2*, vol. I, pp. 736-737; Landsey, *Ibn Asakir and early Islamic History*, Princeton, Darwin Press 2001.

[2] - عز الدين ابن الأثير (المتوفى: 630هـ)، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، بيروت، ت علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، 1994 م، ج 5 ص 201.

[3] - ابن الأثير، **أسد الغابة**، ج 5 ص 201.

نلحظ لديه ابتعادا عن تكرار الأخبار التي تصبغ على معاوية صبغة فوق بشرية، وهو ما يؤشر إلى نوع من النقد لتلك الروايات، منحًى سيتضح أكثر في بعض كتب التراجم اللاحقة.

فقد اكتفى **محيي الدين النووي** (ت 1277/676) في كتابه تهذيب الأسماء واللغات[1] بإعادة المعلومات التاريخية التي أصبحتْ رائجة في زمانه مُركزا بالأساس على تقدم معاوية في رواية الحديث بما أنه رُويَ له عن الرسول مائة حديث، وهو ما أهله ليكون مصدرا لعدد كبير من الصحابة والتابعين.

خلال القرن الثامن تعزز الاتجاه النقدي للرواية بصورة واضحة. وبدا ذلك مع **شمس الدين الذهبي** (ت 1348/748) الذي يقسم الأحاديث الواردة في شان معاوية إلى مجموعتيْن من الأحاديث، واحدة "باطلة ظاهرة الوضع" وأخرى "ضعيفة تُحتمل". ولقد أورد أوسع ترجمة لمعاوية وأطولها بعد ما جاء في ابن عساكر[2]، لكنها ترجمة فيها نفسٌ من إعمال العقل: فقد نقل المعلومات المتداولة عن سيرة معاوية في صدر الإسلام، والتي تقدم عنه على العموم صورة إيجابية، لكنه في المقابل شكك الذهبي في رواية الوَاقِدِيُّ التي تفيد بإسلامه أثناء الحديبية وتلك التي يقول فيها أن معاوية شارك في معركة حُنيْن وأن الرسول أغنمه مائة بعير. واتهم الذهبي الواقدي بأنه لاَ يَعِي مَا يَقُوْلُ[3]، وخير الذهبي في المقابل اعتماد مصادر مدينية أخرى مثل الزهري ومصعب لزبيري وابن عباس والصحابي عَبْدِ الرَّحْمَن بن أبي عَمِيْرَةَ المُزَنِيّ وغيرهم.

وتبعا لنفس منهجه انتقد الذهبي في ترجمة لمعاوية ابنَ عساكر لذكره أحاديثَ قدر أنها "واهية وباطلة" ولاسيما تلك التي تفيد بأن اتخاذ معاوية كاتبا للوحي كان بأمر إلهي وأنه أمينٌ على "خبر السماء"[4]. مع هذا حاول صاحب "السير" تبرير حياد الروايات الواردة في تاريخ دمشق عن "الإنصاف والاعتدال" بكونها نشأتْ في وسط ثقافي موال تمام الموالاة للأمويين[5]. في المقابل اعتبر الذهبي عصره ملائما لاتخاذ مواقف أكثر اتزانا

---

[1] - أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي الشافعي (المتوفى: 676هـ)، تهذيب الأسماء واللغات، بيروت، دار الكتب العلمية، د ت، ج2 ص 101، 102.

[2] - الذهبي، شمس الدين الذهبي (المتوفى : 748هـ)، سير أعلام النبلاء، بيروت، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة 1985، ج 3 ص 119- 162.

[3] - الذهبي، نفس المصدر، 3 ص 120:" قُلتُ: الوَاقِدِيُّ لاَ يَعِي مَا يَقُوْلُ، فَإِنْ كَانَ مُعَاوِيَةُ كَمَا نَقَلَ قَدِيْمَ الإِسْلاَمِ، فَلِمَاذَا يَتَأَلَّفُهُ النَّبِيُّ (ص) وَلَوْ كَانَ أَعْطَاهُ، لمَا قَالَ عِنْدَمَا خَطَبَ فَاطِمَةَ بِنْتَ قَيْسٍ: (أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوْكٌ لاَ مَالَ لَهُ".

[4] - الذهبي، نفس المصدر، ج 3 ص 127، 129.

[5] - يقول الذهبي " وَخَلَفَ مُعَاوِيَةَ خَلْقٌ كَثِيْرٌ يُحِبُّوْنَهُ وَيَتَغَالَوْنَ فِيْهِ، وَيُفَضِّلُوْنَهُ، إِمَّا قَدْ مَلَكَهُم بِالكَرَمِ وَالحِلْمِ وَالعَطَاءِ، وَإِمَّا قَدْ وُلِدُوا فِي الشَّامِ عَلَى حُبِّهِ، وَتَرَبَّى أَوْلاَدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ... وَحَارَبُوا مَعَهُ أَهْلَ العِرَاقِ، وَنَشَأُوا عَلَى النَّصْبِ... كمَا قَدْ نَشَأَ جَيْشُ عَلِيٍّ ... عَلَى حُبِّهِ، وَالقِيَامِ مَعَهُ، وَبُغْضِ مَنْ بَغَى عَلَيْهِ... وَغَلاَ خَلْقٌ مِنْهُم فِي التَّشَيُّعِ. فَبِاللهِ كَيْفَ يَكُوْنُ حَالُ مَنْ نَشَأَ فِي إِقْلِيْمٍ، لاَ يَكَادُ يُشَاهِدُ فِيْهِ إِلاَّ غَالِياً فِي الحُبِّ، مُفْرِطاً فِي البُغْضِ، وَمِنْ أَيْنَ يَقَعُ لَهُ الإِنْصَافُ وَالاعْتِدَالُ؟"، نفس المصدر، ج 3 ص 128.

إزاء معاوية و بالتالي إزاء المواجهة بين الرواية الشامية التي اعتمدها ابن عساكر والروايات المنافسة لها.

مع ما تقدم لا نستشف من الاتجاه العام لروايات الذهبي معاداة للأمويين بل هناك توسعٌ واضح في استعراض فضائل معاوية. من ذلك أنه أعطى تفسيرا إيجابيا للحديث" لا أَشْبَعَ اللهُ بَطْنَهُ" (معاوية) واستبعد المعنى الظاهري المادي الوارد في تفاسير أخرى مُستدركا أن المقصود من ذلك هو" لا أَشْبَعَ اللهُ بَطْنَهُ؛ حَتَّى لاَ يَكُوْنَ مِمَّنْ يَجُوْعُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لأَنَّ الخَبَرَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: (أَطْوَلُ النَّاس شِبَعاً فِي الدُّنْيَا، أَطْوَلُهُم جُوْعاً يَوْمَ القِيَامَةِ)". كما نقل الذهبي الأخبار التي تُفيد دعم عمر بن الخطاب لمعاوية[1] وذكر بصيغ مختلفة الأحاديث التي أوردها ابن عساكر والتي تفيد نبوءة الرسول سيطرة المسلمين على الشام بفضل معاوية[2].

وتنطبق هنا على الذهبي المُلاحظةُ التي سُقناها عن ابن كثير، بما أنه لم يتمكن هو أيضا من الحسم في الروايات التي تحاول إضفاء الشرعية على معاوية بالأحاديث النبوية وشهادات المرجعيات، فوقع في مجاراة الأحاديثَ التي تشيد بفضائل معاوية وخاصة تلك التي يدعو له فيها الرسول بالهداية وبتمكينه من "البلاد" وبوقايته من العذاب كما أورد الحديث الذي ينصح الصحابة بإحضاره في مجالسهم واستشارته باعتباره " قَوِيٌّ أَمِيْنٌ".

وقد نحى **ابن حجر العسقلاني** (ت 1448/852) نفس المنحى خلال القرن التاسع للهجرة. فلئن أعاد في ترجمته لمعاوية تجميع ما أورده ابن سعد وأبو نعيم الأصفهاني والبغوي وأضاف إليها رواياتٍ أخرى تدعم الرأي السائد حول كفاءة معاوية في الحكم[3]، فقد نقد ابن حجر محتوى بعض تلك الروايات. فلقد تساءل مؤلف كتاب الإصابة، كما قام بهذا الذهبي، عن مدى صحة الرواية التي ذكرها الواقدي والتي تُفيد بإسلام معاوية أثناء عمرة القضاء مُعتبرا ذلك متعارضا مع ما صرح به سعد بن أبي وقاص حينما أكد أن معاوية لازال حينئذ "كافرا". ومع هذا فإن ابن حجر لم ينف احتمال صحة ما جاء في رواية الواقدي في هذا الصدد مُلاحظا أن رأي سعد بن أبي وقاص قد يكون ناتجا عن عدم علمه بإسلام معاوية باعتبار أنه لم يجهر بانخراطه في الدين الجديد قبل إخضاع مكة خوفا من عشيرته[4].

2-1: ما يأتي في كتب الطبقات والتراجم: هو من نوع أدب الفضائل:

باستثناء ما جاء في كتابيْ ابن سعد وابن خياط في القرن الثالث، يبدو جليا من السابق إيلاء مدوني الطبقات والتراجم الأهمية للجوانب الإيجابية في

---

[1] - الذهبي، نفس المصدر، ج 3 ص 126.

[2] - الذهبي، نفس المصدر، ج 3 ص 139، 150، 159.

[3] - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت، ت عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية 1415 هـ، ج 6 ص 120؛ لسان الميزان، عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية 2002، 5 ص 95.

[4] - ابن حجر، الإصابة، 2 ص 120.

شخصية معاوية، بل ويتحول ذلك في كثير من الروايات إلي تركيز على ما هو غير تاريخيّ فيها، أسطوري حسب سعيد الأفغاني[1]. ومن طبيعي أن يستنتج المُهتم بالتاريخ السياسي أن الغرض الأول من التبجيل المُفرط للرموز السياسية ليس غير إضفاء لشرعية تسمو بصاحبها عن الطعن والنقد. وحسب تقديرنا يدخل ذاك الكم الهائل من تلك الروايات التي تهم معاوية ضمن ما عُرف في الثقافة العربية الإسلامية بأدب الفضائل الذي بدأ يتطور منذ القرن الثالث/التاسع للهجرة، أي في نفس المرحلة التي نشأت فيها المناقب (للصحابة و"الصالحين") والشمائل (الرسول). وقد كان لأدب الفضائل أكثر من اهتمام: فقد ظهرت مؤلفات في فضائل المواقع والمواضع[2]، وأخرى في فضائل الشهور[3] والفقهاء[4]. ودُونتْ كتب في فضائل الصحابة، ومنها فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (ت 241/ 855) وكتاب فضائل عثمان لابنه (ابن حنبل) عبد الله (ت 868/451) وكتاب فضائل أبي بكر الصديق لمحمد بن عل الحربي، المعروف بالعشاري (ت 868/451).

واعتبارا إلى أن مسألة الخلافة والحكم كانت مركزية في الصراع فقد ظهرت منذ فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي كتبٌ تدعو لهذا المعسكر السياسي أو ذاك[5]. ولأنّ معاوية مثل منعرجا قد لا يكون له مثيل في دولة المسلمين الأولى (غير قواعد انتقال السلطة بتأسيسه حكما وراثيا وحول مركزها من المدينة إلى الشام وأعاد للقبيلة اعتبارها...) كان هدفا لمعارضين عديدين في حياته وعلامة للظلم عند خصوم الأمويين خلال القرنيْن الأول والثاني. بدْءا من القرن الثالث، وبسبب تعدد التناقضات التي عاشتها الدولة العباسية وعدم توازن سياسة بعض خلفائها المذهبية، ستشهد صورة معاوية تحولا إلى نقيض ما كانت عليه سابقا عند أكثر من طرف؛ فقد أصبح معاوية رمزا للمقاومة لدى من تبقى من أنصار الأمويين[6] وفي أكثر من مناسبة رمزا لاحتجاج العامة وبعض النخب على الأوضاع التي تعيشها.

---

[1] - سعيد الأفغاني، مقال" معاوية والأساطير"، مذكور سابقا.

[2] - منها: فضائل مكة لعبد الكريم بن محمد، المعروف بأبي سعيد (ت 110 هـ)، وفضائل المدينة للمفضل بن محمد الشعبي (ت 308 هـ)، وفضائل الكوفة لمحمد بن جعفر المشهدي (ق VI هـ)، وفضائل القدس لعبد الرحمن بن الجوزي (ت579 هـ)، وفضائل الشام لأبي سعيد السمعاني (ت 562 هـ)، وفضائل الشام لمحمد بن أحمد المقدسي (744 هـ).

[3] - فضائل الأوقات للبيهقي، وفضائل شهر رجب للحسن بن مجمد الخلال (ت 439 هـ)، وفضائل رمضان لابن شاهين، وفضائل رمضان للجماعيلي (ت 600 هـ).

[4] - فضائل أبي حنيفة وأخباره لعبد الله بن محمد السعدي المعروف بابن أبي العوام (ت 335 هـ)، ومناقب الشافعي لمحمد بن الحسن السجستاني (ت 363 هـ).

[5] - تزخر المكتبة الشيعية بعشرات الكتب، منها: فضائل الشيعة لمحمد بن علي، ابن بابويه (ت 381 هـ)، ومناقب علي بن أبي طالب لعلي بن محمد، ابن المغازلي (483 هـ)، فضائل آل البيت لتقي الدين المقريزي (ت 845 هـ).

[6] - فاروق عمر، العباسيون الأوائل، 97 هـ /716م- 170 هـ /786م، بيروت، دار الإرشاد، الجزء الأول، ص 154- 156.

وكان من معالم ذلك أنْ تعددتْ منذ القرن الثالث الكتب التي تعدد مناقبه، وتدفع بالتالي التهم عن الأمويين[1]، ومنها: كتاب "حلم معاوية" لابن أبي الدنيا المتوفى سنة 894/281. ويُنسبُ لابن أبي الدنيا أكثر من كتاب في أخبار معاوية رغم كونه مؤدبا لعدد من أولاد الخلفاء العباسيين منهم المعتضد وابنه عليّ، وإنْ كان ذلك لا يعني بالضرورة ولاءً سياسيا بما أن كتب التراجم تنسبُ له كذلك عناوين في "فضائل عليّ" و"فضائل العباس". ويُلاحظ من خلال منقولات البلاذري في كتابه الأنساب وكذلك مما أورده منه ابن عساكر في تاريخ دمشق[2] أن كتاب "كتاب حلم معاوية" هو أوسع بكثير من الكتاب الذي يحمل نفس العنوان والمنسوب لابن أبي الدنيا الذي نشره المحققان عصام مصطفى هزامة ويوسف أحمد بني ياسين في كتيب نشراه في عمان بعنوان "ثلاث رسائل في فضائل معاوية"[3].

وإلى جانب الكتاب السابق ضَمنَ هذان الباحثان كتابهما المذكور مقاطع من كتاب "فضائل أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان" وأخرى من كتاب" شرح عقد أهل الإيمان في معاوية بن أبي سفيان وذكر ما وردَ في الأخبار من فضائله ومناقبه"، الأولُ لعبيد الله بن محمد السقطي البغدادي (القرن الرابع/ العاشر الميلادي) والثاني للحسين بن علي الأهوازي، المتوفي سنة 1054/446. وإذا كان من غير المعلوم دوافع تأليف السقطي لكتاب في فضل معاوية، وقد كان مقربا من العباسيين فقد عُرف الأهوازي بميله الواضح للدفاع عن الأمويين وهو ما جعل الذهبي ينتقد كتابه بكونه مَلِيءٌ "بالأباطيل السمجة"[4].

بالإضافة للمصنفات السابقة تذكر المصادر "كتاب فضائل معاوية" لأبي عمرو الزاهد المعروف بغلام ثعلب (ت 957/345)، والذي بقي مُتداولا حسبما يبدو حتى القرن التاسع للهجرة[5]، و"كتاب البراهين في إمامة الأمويين" لمؤلف مجهول وكتاب "فضائل معاوية" لأبي بكر بن عاصم الذي ذكره ابن حجر في مُعجمه[6] وكتاب بنفس العنوان ليوسف بن عمر القواس (ت385/ 995)[7]. عِلمًا أن الاهتمام بفضائل معاوية لم يقتصر على المشارقة بل

[1] - من الكتب التي تُذكر في ثلب معاوية والأمويين: "رسالة في مثالب بني أمية" لابن الكلبي وكتابان ذكرهما ياقوت لابن عمار الثقفي وهما " مثالب معاوية" و "الرسالة في تفضيل بني هاشم مواليهم وذم بني أمية وأتباعهم".

[2] - ابن عساكر،تاريخ دمشق،59ص187،185،183،82،179،178،152،126،125،112، 188.

[3] - عصام مصطفى هزامة ويوسف أحمد بني ياسين، ثلاث رسائل في فضل معاوية، اربد، مؤسسة حمادة لدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، 2000.

[4] - شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، القاهرة، دار الحديث، ج13 ص287.

[5] - ياقوت الحموي، معجم الأدباء أو إرشاد الأريب، بيروت، دار الغرب الإسلامي، تحقيق إحسان عباس، 1993، ج 6 ص 2558؛ ابن حجر، لسان الميزان، 5 ص 428.

[6] - ابن حجر العسقلاني، المُعجم المُفهرس أو تجويد أسانيد الكتب المشهورة، تحقيق شكور المياديني، بيروت، مؤسسة الرسالة 1998، ص 123.

[7] - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 12 ص 430.

ساهم نُظراؤهم من المغاربة في ذلك مثل ابن عبد ربه الأندلسي (ت 328/ 939) الذي توسع في استعراض أخبار معاوية وخصص بابا من عِقْده للحديث عن "فضائل معاوية" السياسية[1] بينما لم يذكر عن فترة علي بن أبي طالب غير أطوار صراعه مع خصومه، وهو ما يوحي بعدم ترتيبه ضمن خلفاء الدولة الإسلامية.

ولأن استحضار الماضي بقي غطاء لتبرير الصراعات العقائدية وربما لرفض استحقاقات انخراط المسلمين في ما نادت به الحداثة من أفكار فقد عاد البعض في بداية التاريخ الحديث إلى تأليف كتب تتمحور حول الدفاع عن معاوية مثل "تطهير الجنان واللسان عن الخوض والتفوه بثلب معاوية بن أبي سفيان" لأحمد بن حجر الهيتمي الشافعي (ت 974 هـ)[2].

ج- أبعاد تحول صورة معاوية في كتب الطبقات: فضائل معاوية : انعكاس للتناقضات المختلفة:

* الدعاية لمعاوية رد فعل على السياسة العباسية: لم يؤد نجاح العباسيين في السيطرة على بلاد الشام وقتل مروان بن محمد سنة 750/142م إلى إنهاء كل مساندة للدولة الأموية، والتي تواصلت بأشكال مختلفة. فبعد التغلب على الانتفاضات المسلحة التي قادها بعض الأمراء الأمويين خلال السنوات الأولى التي تلت سقوط دولتهم (أبرزها انتفاضة أبي محمد السفياني التي سيتواصل صداها لفترة طويلة) اضطُر المنصور إلى مزاوجة سياسة التشدد تُجاه من تبقى من أنصارهم وبين محاولة استمالتهم[3]. ورغم النجاحات النسبية في ذلك خلال الطور العباسي الأول، فقد فشل العباسيون في استئصال المساندة لخصومهم السابقين والتي تواصلت بأشكال سلمية، مستفيدةً من احتداد التناقضات المتعددة التي عاشتها الدولة العباسية منذ أواسط القرن الثالث. ونجد في المصادر التاريخية (أنساب البلاذري، تاريخ الطبري، العقد الفريد لابن عبد ربه وغيرها) والأدبية (صبح الأعشى للقلقشندي ورسائل الجاحظ...) دلائل عديدة على أنَّ الأزمات السياسية المتعاقبة والتنافس المذهبي وَفرَا مناخا ملائما لتنامي حَنينٍ لمعاوية وللأمويين لدى الكثير من النخب وكذلك العامة بالمدن خلال الوسيط المتقدم وتواصل صداه في بعض المصادر لاحقا. وهي ظاهرة تم تناولها في دراسات مختلفة منذ بداية القرن الفائت[4].

---

[1] - شهاب الدين أحمد بن محمد المعروف بابن عبد ربه، العقد الفريد، بيروت، دار الكتب العلمية 1983/1404، ج 5 ص 111 وما بعدها.

[2] - إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين في أسماء المؤلفين، استنبول، وكالة المعارف الجليلية 1951 وأعيد طبعه في بيروت من قبل دار إحياء التراث العربي،1 ص 146. وقد حقق ه\ا الكتاب ونشره محمد زيد الكوثري، القاهرة،د.ت.

[3] - فاروق عمر، العباسيون الأوائل، 98ه/716م- 170 هـ/ 786م، بيروت، دار الإرشاد، ص 150-157.

[4] - حبيب الزيات، التشيع لمعاوية في عهود العباسيين، المشرق، سنة 1928، ص 410- 415.

وفي الحقيقة ليس هناك من تفسير للقرار الذي اتخذه المأمون بلعن معاوية بن أبي سفيان في المساجد سنة 826/211 (أو التي تليها) والقرار المماثل الذي اتخذه المعتضد بالله سنة 897/284 سوى محاولة منهما للتصدي لدعاية معادية للسلطة بإيعاز من أنصار للأمويين؛ كما أن تراجع الخليفتيْن عن إلزام الناس بمحتواها، الأول بتأثير من القاضي يحي بن أكثم والثاني بنصيحة من وزيره عُبيد الله بن سليمان بن وهب، ليس غير درْءٍ لما قد يحصل من ردود فعل العامة/السنة. ويُفهم من نص قرار المعتضد الوارد في تاريخ الطبري[1] أنه كان أحد الإجراءات التي اتخذها الخليفة ضد حركة فكرية نشيطة كانت تتم في الجوامع الرئيسية ببغداد ويقودها الوراقون وأصحاب الرأي المناصرين الأمويين، كما هو يُمثل دعاية مُضادةً بحق للمدافعين عن معاوية، بما أنه يستعرض اتهامات لهذا الأخير جاءت وكأنها للرد على يردُ من فضائله (معاوية) في كتب الطبقات والتراجم: فمعاوية هو المَعني بقول الرسول، وقد رآه مقبلا على حمار يسوقه ابنه يزيد، "لعن الله القائد والراكب والسائق"، وعليه دعا الرَسُولَ "لا اشبع الله بطنه، فبقى لا يشبع". وهو المعني بالحديث "يطلع من هذا الفج رجل من أمتي يحشر على غير ملتي"، وبالحديث" إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه " وأن "معاوية في تابوت من نار في أسفل درك... إلى غيرها من الأحاديث الحاطة. أضفْ إلى ذلك اتهامه بمنازعته حق علي بن أبي طالب في الخلافة وقتل خيار الصحابة في إشارة لحُجر بن عدي ورفاقه، وأنه "يستهوي أهل الغباوة"، وأخذ البيعة لابنه يزيد "المتكبر الخمير، صاحب الديوك والفهود والقرود"... لكن أبرز التهم هي تلك التي ترى في معاوية سليلا لعشيرة كانت استجابتها للدعوة الإسلامية عند ظهورها محدودا وكان أبوه أبو سفيان من أبرز قادة أعدائها، ومن هناك فهم حسب نص اللعن المعنيون بصفة "الشجرة ملعونة" الواردة في الآية ستون من سورة الإسراء. وهو كما يبدو تأويل يتماهي مع اتجاه في تفسير القرآن والحديث على ضوء المنازع المذهبية بدأ قبل حكم المعتضد بزمن وأولتْ بمقتضاه الكثير من الآيات بشكل معادٍ للأمويين من طرف خصومهم المذهبين. وقد توقف جولدسيهر عند نماذج من ذلك[2].

* فضائل معاوية: تدخلُ في إطار النزاع بين"مذهب الجماعة"/السنة ومذاهب أخرى: إذا كان الصراع السياسي هو الدافع الرئيسي لمساندة

Pellat Ch., Le culte de Mu'âwiya au IIIe siècle de l'hégire", *Studia Islamica,* VI, 53-66 ;Tayeb El-Hibri, The redemption of Umayyad Memory by the Abbasids, *Journal of Near Eastern Studies*, vol 61, n° 4, octobre 202, p. 241-265; Bellamy J., Pro-Umayyad propagande in the ninth century in the works of ibn Abi-l-Dunya, in *Prédiction et propagande au Moyen-âge*, édition Maqdisi, Paris 1983, p 71-86.

[1] - محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، بيروت، دار التراث، ج 10 ص 54 وما بعدها.

[2] - أجنتس جولتسهر، مذاهب التفسير الإسلامي، بيروت، دار اقرأ 1983، ترجمة عبد الحليم النجار، ص 289، 290، 291.

الأمويين خلال القرنيْن الأولين من الدولة العباسية فإن التنافس العقدي كان وراء تواصل الدفاع عن معاوية والأمويين لدى عدد غير قليل من منظري المذاهب السنية. ولأنه لم يكن هناك حد قاطعٌ بين السياسة والفكر فقد انعكس الصراع الدائر حول الحكم في الدولة الإسلامية على المفكرين منذ القرن الثاني للهجرة؛ وكان أبرز تجليات ذلك انقسام الفكر المذهبي عند المسلمين إلى تيارات رئيسية ثلاثة: السنة والشيعة والمعتزلة. ومن الطبيعي أن يسعى رواد كل فكر إلى التأثير على سيرورة التاريخ من خلال القيام بالدعاية لمذهبه أو الحط من المذهب الخصم. في ذلك الإطار مثل الزعماء/الرموز مادة سهلة لخلق شخصيات نمطية، سلبا أم إيجابا. كان ذلك حال عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وبطبيعة الحال معاوية.

- كان معاوية مُستهدفا في الأدب التاريخي المتشيع، من ذلك ما يردُ في الكتب التالية:

• كتاب السقيفة المنسوب إلى سليم بن قيس العامري، أحد الكوفيين من أصحاب عليّ الأوفياء[1] وتعتبره الشيعة الاثني عشرية أبرز مصادرها: معاوية هو الذي يجسد معسكر الشر: بما أنّه يحرض قُرّاء أهل الشام وقضاتها على بث الروايات الكاذبة التي تحمل علي مسؤولية قتل عثمان والتشكيك في شرعية خلافة أبي بكر وعمر وهو ما أنشأ أجيالا من الشاميين تربتْ على لعن علي بن أبي طالب؛ ومن تمسك معاوية بالحكم رغم قناعته بأولوية علي للخلافة. وينسب الكتاب إلى علي[2] تفسير آيات قرآنية تصنف معاوية وأنصاره ضمن الكافرين والصامين آذانهم عن الحق وأنهم فتنة للناس؛ وفي مواضع أخرى من الكتاب يتجاوز الاتهام معاوية ليشمل أهل بيته من الأمويين الذين يصفهم بأهل فتنة و"بالشجرة الملعونة" (ذات التهمة التي سترد لاحقا في قرار لعن معاوية الذي أصدره المعتضد كما تمت الإشارة إلى ذلك سابقا) والذين تنطبق عليهم أوصاف أطلقها النص القرآني على اليهود[3]. وينقل سليم العامري نبوءة ابن أبي طالب بمقتله ثم قتل ابنيه الحسن والحسين على يد بني أمية وانتقال حكم المسلمين بين فروع هذا البيت لفترة قبل سقوط خلافتهم على يد أصحاب الرايات السود القادمين من الشرق وذلك في انتظار خروج المهدي. كما نقل الكتاب تُهمًا عديدة مُوجهة لمعاوية أبرزها الإسلام كرها واغتصاب حق علي وبإجبار ابن عباس على عدم تأويل القرآن بصورة لا تمس من شرعية الحكم الأموي وبأن خلافته كانت شديدة البلاء على الأمصار وبشكل خاص على شيعة علي وأهل بيته وعلى

---

[1] - سليم بن قيس الهلالي العامري الكوفي (ت 90 هـ)، كتاب السقيفة المعروف بكتاب سليم بن قيس الهلالي، بيروت، دار الإرشاد الإسلامي 1994، ص 160 وما بعدها.

[2] - سليم بن قيس، نفس المصدر، ص 177 وما بعدها.

[3] -اتهام اليهود بالكفر وبقتل "النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط"، سورة آل عمران، الآية 21

أهل الكوفة[1].

• في كتيب منسوب للعباس بن بكار (القرن الثالث)[2] استعرض في ثناياه جدالا حصل بين معاوية وعدد من رموز الكوفيين والبصريين الذين ناصروا عليا بن أبي طالب أثناء الفتنة، وفيه اتهامات صريحة للخليفة الأموي من أبرزها خذلانه عثمان ووصفه بالجبن وتدني شرف نسبه قياسا بعلي بن أبي طالب.

• المفيد العكبري، وهو أحد أبرز منظري الشيعة الإمامية في القرن الخامس، وقد صنف بدوره الذين حاربوا علي بن أبي طالب في معركة صفين، ومعاوية بالطبع في مقدمتهم، ضمن كفار الملة أي المسلمين الذين يظهرون الشهادتيْن، وهو كفر أقل خطورة من كفر الردة حسب تقديره لكنه في كل الأحوال كفر يُلحق بأصحابه" اللعنة والخلود في النار"[3].

- موقف المعتزلة: لا نملك مصادر تاريخية معتزلية، ومع هذا يمكن تبين موقفها من معاوية انطلاقا مما أورده الجاحظ (ت سنة 255 ه) في رسالته الحادية عشرة التي قام بجمعها عبد السلام هارون[4]، وقد خصص تلك الرسالة لمن سماهم "النابتة"، واعتبرها من المذاهب غير ذات التأثير في التاريخ الإسلامي حسب تقديره. وفي هذه الرسالة رأى الجاحظ أن معاوية قد استبد بالسلطة وبأمر المسلمين وعطل الشورى وحول بالتالي الخلافة إلى مُلك. ونفى الجاحظُ أن تكون السنة التي تخلى فيها الحسن بن علي عن الخلافة لصالح معاوية عام الجماعة بل " كان عام فُرْقة وقهر وجبرية وغلبة" حسب تعبيره. واعتبر الجاحظ قبول سحب معاوية النسب السفياني على زياد بن أبيه إجراءً موجبا لتكفيره. وذهب إلى أن قتل حُجر بن عدي وإعطاء خراج مصر لعمرو بن العاص مقابل مساندته له في موجهة علي بن أبي طالب واستخلاف معاوية ابنه يزيد واختياره الولاة على أساس الولاء والقرابة وتعطيله الحدود وغيرها من السياسات هي من باب " جَحْد الأحكام المنصوصة، والشرائع المشهورة، والسُّنن".

تبعا لهذا الموقف كفر الجاحظ معاوية وكفر منْ لم يكفره في زمانه، أي في القرن الثالث، بل اعتبرهم "أكفر من يزيد وأبيه، وابن زيادٍ وأبيه"[5]. وقد اعتبر بعض الباحث الإيطالي " جويدي" أن تركيز المعادين للأمويين على

---

[1] - سليم بن قيس، نفس المصدر، ص 187، 188، 189، 190.

[2] - العباس بن بكار (أو ابن الوليد بن بكار) الضبي (ت 222هـ)، أخبار الوافدين من الرجال من أهل البصرة والكوفة على معاوية بن أبي سفيان، بيروت، ت سكينة الشهابي، مؤسسة الرسالة 1983.

[3] - محمد بن النعمان العُكبري، المعروف بالشيخ المفيد (ت413 هـ)، كتاب الجمل، قم، ت السيد علي مير شريفي، مكتبة الإعلام الإسلامي 1374 هـ، ص 70، 71؛ راجع بحثنا انطلاقا من هذا الكتاب "التأريخ المذهبي من خلال كتاب الجمل للعكبري"، مجلة "موارد" لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة "التأريخ المذهبي من خلال كتاب الجمل للعكبري"، سوسة، عدد 17، سنة 2012، ص ....

[4] - أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: 255هـ)، رسائل الجاحظ، القاهرة، ت عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي 1964، ج 2 ص 10، 11.

[5] - الجاحظ، نفس المصدر، 2 ص 120.

يزيد خلال القرن الثالث وبعده يدخل في إطار الصراع مع المذهب اليزيدي، وذهب إلى أن هذا المذهب هو نسبة إلى يزيد الأول وهو ليس غير بقايا تيار فلسفي وَفي للأمويين يرمي إلى مجابهة الدعاية العلوية[1]. لكن علينا أنْ نلاحظ أن رأي "جويدي" هذا لا يجد ما يدعمه في كتب الفرق والنحل الإسلامية التي تُجمع على أن اليزيدية هم أتباع يزيد بن أنيسة أحد زعماء الخوارج في القرن الأول[2].

لمجابهة هذا العداء اتخذت المذاهب السنية في مجملها موقفا إيجابيا من معاوية، ويبدو ذلك بجلاء من خلال موطأ مالك ومسند الشافعي والبخاري وصحيح مسلم هناك إقرار بكون معاوية مصدرا للسيرة والحديث[3].
ودافع الشافعي في مسنده عن معاوية في أكثر من موضع[4]؛ مع التنويه إلى أن أكثر من اهتم بفضائل معاوية ومناقبه من أصحاب التراجم الذين تم استعراض محتواها في الفصل الأول من هذا البحث هم من المحسوبين على هذا المذهب على غرار البغوي وابن عساكر وابن الأثير والنووي والذهبي.
ومن جانبه أوردَ الترمذي في سننه[5] الحديث الذي يدعو فيه الرسول لمعاوية بالهداية وأفردَ "كتابا" في سننه لمناقب الصحابة فاستعرض مناقب الخلفاء الراشدين الأربعة حسب الترتيب ثم مناقب عدد من الصحابة الأوائل. وأنهى "الكتاب" بفصل أخير ذكر فيه مناقب بمعاوية إلى جانب جيل آخر من الصحابة منهم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وسعد بن معاذ وقيس بن عبادة وجابر بن عبد الله ومصعب بن عمير والبراء بن مالك وأبو موسى الأشعري.

---

[1] - Guidi I., "Origine dei Yazidi e storia religiosa dell'Islam e del dualismo", *R. S. O.*, XIII (1932), 266-300;

[2] - الشهرستاني، الملل والنحل، القاهرة، مؤسسة الحلبي، 1 ص 136؛ عبد القادر البغدادي، الفرق بين الفرق، القاهرة، تحقيق محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا للنشر د. ت. ، ص 244.

[3] - مالك بن أنس (ت 179 هـ)، الموطأ، بيروت، دار إحياء التراث العربي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، 1975، ج1 ص 246، 299، ج2 ص900، 947؛ محمد بن إسماعيل البخاري (ت256 هـ)، مسنده، دمشق، دار طوق النجاة، تحقيق محمد زهير الناصر(مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، 1422هـ، 2 ص8، ج3 ص 44، ج 4 ص 173، 177، ج7 ص 165/ 8 ص 72، ج9 ص 101؛ مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت 261 هـ)، صحيح، بيروت، دار إحياء التراث العربي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، 1 ص 290،ج2 ص 719، 795، 913، 1114، ج3 ص 1524، 1679؛ أبو داوود السجستاني (ت 275 هـ)، سننه، بيروت- صيدا، المكتبة العصرية، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، 1 ص 100، 168، 281، ج2 ص 53، 157، 159، ج4 ص 77، 93، 164؛ محمد بن يزيد القزويني، ابن ماجة (ت 273 هـ)، سنن، بيروت، دار إحياء الكتب العربية، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، د. ت.، 1 ص 46، 80، 179، 240، 309، 527/ 2 ص 859، 927، 1040؛

[4] - محمد بن إدريس الشافعي(ت 204 هـ)، المسند، بيروت، دار الكتب العلمية عن طبعة المطبعة الأميرية بالهند، د.ت.، ص161، 242.

[5] - محمد بن موسى الترمذي (ت 279 هـ)، سنن، القاهرة، مطبعة الحلبي، أحمد محمد شاكر (ج1، 2) ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج 3) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج 4، 5)،

وكان أحمد بن حنبل (المتوفى 241هـ /855م) أكثر المدافعين عن معاوية إذْ نجدُ في مُسنده اهتماما واضحا بمعاوية، تجاوز بكثير ما ورد في باقي كتب الصحيح، وقد تفطن إلى هذا التوجه أكثر من باحث في تاريخ الفكر المذهبي عند المسلمين، أبرزهم الفرنسي هنري لاووست[1]. لقد اعتبر ابن حنبل معاوية موردا أساسيا من موارد الحديث في بلاد الشام وخصص بابا كاملا في مسنده، وتحديدا في باب "مسند الشاميين"، لمعاوية جاعلا ترتيبه ضمنهم الثالث بعد خالد بن الوليد وصحابي من أصل حبشي دُعيَ ذي مِخْبر (أو مخمر). في هذا الإطار كان لابن حنبل السبق في إيراد عشرات الأحاديث التي نسبها معاوية إلى النبي مباشرة[2]، روايات وأحاديث ستجيءُ في كتب الطبقات بأسانيد مختلفة أحيانا بدءا من القرن الرابع. وما يُلاحظ في هذا الخصوص هو تأكيد ابن حنبل في أكثر من موضع على صدق معاوية في روايته الحديث[3]. كما أسند ابن حنبل لمعاوية أحاديث كثيرة تحث على التواضع وتفادي التظاهر بالبذخ بشتى مظاهره[4]، وذلك في تباين كامل مع سيرد في بعض كتب الطبقات والتراجم في القرون الموالية من أحاديث منسوبة لعمر بن الخطاب خاصة يتهم فيها معاوية بالإسراف في البذخ والتظاهر بالعظمة وبكونه أقام حكما كسرويا[5].

ولا يقتصر إسهام معاوية، حسب أحمد بن حنبل، في تركيز السنة النبوية على ما هو عَقَدِي تعبدي شخصي فحسب بل يشمل التوجيه السياسي؛ في هذا الخصوص كان ابن حنبل أوّل مَنْ أورد أحاديث مصدرها معاوية سيكون فحواها محل جدل واسع في القرون التالية لما لها من أبعاد خطيرة على الشأن السياسي الإسلامي برمته: فقد نقل الحديث الذي تنبأ فيه الرسول بمستقبل معاوية السياسي وبخلافته أمر المسلمين[6]، ونقل أحاديث نسبها معاوية للرسول تحذر من مغبة المساس بحق قريش الثابت في الحكم، مثل"...إن هذا الأمر في قريش، لا ينازعهم أحدٌ...ما أقاموا الدين" أو"الناس تُبع لقريش في هذا الأمر، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا

---

[1] - Laoust H., *Les schismes dans l'Islam*, Paris, Payot 1965, pp. 114-119, 209-213, 266-276; Même auteur, *Pluralismes dans l'Islam*, Paris, Librairie Orientaliste Paul Garnier, hors série 1983, p. 1-135.

[2] - أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (المتوفى: 241هـ)، المسند، بيروت، مؤسسة الرسالة، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، 2001، ج 28 ص 36- 137.

[3] - ابن حنبل، نفس المصدر، 28 ص 52، 56، 60.

[4] - ابن حنبل، نفس المصدر28 ص131،127،123،121،114،109،90،86،78،59،45.

[5] - ابن عبد البر، الاستيعاب،3 ص 1416؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق،ج 59 ص114،113؛الأثير، أسدُ الغابة، ج5 ص201؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج2 ص 240..

[6] - ابن حنبل، نفس المصدر، 28 ص 129، 130: ""حَدَّثَنَا رَوْحٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو أُمَيَّةَ عَمْرُو بْنُ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جَدِّي، يُحَدِّثُ، أَنَّ ... رَسُولَ اللهِ (ص) رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَقَالَ: " يَا مُعَاوِيَةُ، إِنْ وُلِّيتَ أَمْرًا فَاتَّقِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاعْدِلْ "، قَالَ (معاوية): فَمَازِلْتُ أَظُنُّ أَنِّي مُبْتَلًى بِعَمَلٍ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ... حَتَّى ابْتُلِيتُ".

فقهوا..."[1]. ولم يكتف ابن حنبل بنقل الأحاديث المُمتدحة قريشًا ومعاوية بل أسنَدَ للأخير حديثا وقع تأويله في اتجاه تفضيل الشام مركز الأمويين[2].

ولعلّ أبرز حديث أورده ابن حنبل حديثا للرسول، لكن نقلا عن معاوية، والذي سيكون له أثر بعيد على الساحة السياسية، وهو ذلك الذي تنبأ فيه النبي بانقسام المسلمين إلى " ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ... كُلُّهَا فِي النَّارِ إلا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ..."[3]، وسيكون هذا الحديث أحد الأسس النظرية في صراع السنة (الجماعة) مع باقي المذاهب الإسلامية بدْءًا من القرن الثالث. فقد أعاد ذكره أبو داوود السجستاني المُعاصر لابن حنبل[4]، وأصبح حجة عبد القادر البغدادي على ضلال المذاهب الأخرى في مصنفه حول الفرق الإسلامية خلال القرن الرابع[5].

إن ما يأتي في مسند ابن حنبل ليس في الواقع غير مؤشر على الدور الذي لعبه أتباع هذا المذهب في التصدي لمناوئي المذاهب السنية في مركز الدولة الإسلامية بالمشرق منذ القرن الثالث؛ فكان الفقهاء الحنابلة رأس الحربة في مواجهة الشيعة المستفيدين من تحالفهم مع السلطة البويهية خلال القرن الرابع والخامس كما لعبوا دورا متقدما في تركيز الأيديواجيا السنية خلال القرون الموالية، وبهذا وجدوا أنفسهم موضوعيا في موقع المدافع عن معاوية، ومن خلاله الأمويين، في وجه الدعاية الشيعية وباقي الأطراف السياسية الفاعلة. وكما فعل بعض المحدثين والمهتمين بالنسب المساندين لمعاوية والمُشار إليهم سابقا، قام الكثير من الفقهاء بتدوين الكثير من الشهادات يعود أغلبها للحنابلة وغرضها إبراز تمسك المسلمين بمعاوية ويزيد ابنه.

فقد أورد أبو عبد الله الشيباني، أبرز أتباع أحمد بن حنبل في القرن الثالث، رواية تبرّرُ قتل حُجْرَ بن عديّ ورفاقه. إذْ نسب إلى الزاهد عَمْرو بن الْأسود الْعَنسِي قوله مُخاطبا معاوية: "ألا إنَّا بحصن من الله حُصَيْن لم نؤمر بِتَرْكِهِ وقولك يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ فِي أهل الْعرَاق ألا وَأَنت الرَّاعِي وَنحن الرّعية ألا وَأنت أعلمنَا بدائهم وأقدرنا على دوائهم وَإِنَّمَا علينا أن نقُول سمعنَا وأطعنا"[6]. ومن المُفيد أن نلاحظ هنا أن عمرو بن الأسود العنسي كان من التابعين

---

[1] - ابن حنبل، نفس المصدر، 28 ص 65، 125.

[2] - " سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (ص) يَقُولُ: " لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ " فَقَامَ مَالِكُ بْنُ يَخَامِرٍ السَّكْسَكِيُّ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سَمِعْتُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ، يَقُولُ: " وَهُمْ أَهْلُ الشَّامِ " فَقَالَ مُعَاوِيَةُ وَرَفَعَ صَوْتَهُ: هَذَا مَالِكٌ، يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاذًا، يَقُولُ: " وَهُمْ أَهْلُ الشَّامِ "، نفس المصدر، 28 ص 128

[3] - ابن حنبل، نفس المصدر، 28 ص 134، 135.

[4] - أبو داوود، **سنن**، 4 ص 198.

[5] - عبد القادر البغدادي (ت 429 هـ)، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، القاهرة، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، تحقيق محمد عثمان الخشت، ص 23، 24، 25.

[6] - أبو عبد الله أحمد الشيباني (ت 241هـ)، مسائل الإمام أحمد بن حنبل، رواية ابن أبي الفضل صالح (203هـ - 266هـ)، الهند، الدار العلمية د ت. ج2 ص 329

ويُشهد له بالورع والزهد ولكنه توفي خلال السنة الأولى من خلافة معاوية (سنة41) بينما قتل حُجر وأصحابه بعد ذلك، وهو ما يفترض استغلال أبي عبد الله الشيباني، أو من نقل عنه تلك الرواية، لما يروج عن العنسي من ورع لتمرير روايته المدافعة عن معاوية. وما يزيد من دعم ما نذهب إليه في هذا الخصوص هو ما يُنعتُ به عمرو بن الأسود من كونه شاميا " قليل التشيع"، والذي لا يعني في خضم الفتنة الأولى غير الانتصار لمعاوية ومساندته في مواجهة علي بن أبي طالب[1].

وتواصل منزع الدفاع عن معاوية في الفقه الحنبلي خلال العصر الوسيط المتأخّر إذ اعتبر الجماعيلي خلال القرن السابع للهجرة "معاوية شاهدا عدلا تماما كالزهري والشافعي"[2] ونقل ابن الأثير الذي عاش في نفس القرن حديثا مُسندًا إلى رواية شامية[3] تدعم رؤية السنة الحنابلة للسلطة القائمة مفادها أن "السلطان ظل اللَّه فِي أرضه، يأوي إِلَيْه كل مظلوم من عباده، فإن عدل كَانَ لَهُ الأجر، وعلى الرعية الشكر، وَإذا جار عَلَيْهِ الإصر، وعلى الرعية الصبر...".

ويبقى أحمد بن تيمية الحنبليّ (ت 728/ 1327) أبرز علامة لهذا التيار في العصر الوسيط المتأخر. ففي كتابٍ ألفه للرد على الشيعة الرافضة، وفي معرض دفاعه عن سياسة عثمان بن عفان ووُلاته أفردَ صفحات طويلة لاستعراض "فضَائِل مُعَاوِيَة" الكثيرة، فأكد على حسن إسلامه وعلى الدور الإيجابي الذي لعبه خلال الفترة الراشدية[4] ونقل شهادات كثير من الصحابة (مثل ابن عباس وأبي الدرداء وقتادة ومجاهد والأعمش وأبي إسحاق السبيعي) تُقر بصدقه وفقهه وبكفاءته في تسيير بيت المال[5]. واعتبر ابن تيمية معاوية أفضل من كثير من وُلاة علي بن أبي طالب خاصا بالذكر منهم زِيَادِ بن أبيه والأشْتَرَ النَّخَعِيَّ ومُحَمَّدَ بْنَ أبي بَكْرٍ؛ كما اعتبر فترة حكمه أكثر أمنا واستقرارا من مختلف الفترات التي عقبتها[6]؛ ولأنه صحابي فهو أفضل من كل التابعين بمن فيهم عمر بن عبد العزيز المشهود له بالعدل[7]. وقدر ابن تيمية أن "سيرة معاوية مع رعيته من خيار سير الولاة" وبرر ما حصل من

---

[1] - ابن كثير، البداية والنهاية، ج 11 ص 152؛ ج 12 ص 162.

[2] - عبد الرحمن بن محمد الجماعيلي الحنبلي(ت 682هـ)، **الشرح الكبير على متن المقنع**، بيروت، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، د ت، 10 ص 196.

[3] - ابن الأثير، **أسد الغابة**، 4 ص 436، 437.

[4] - أحمد بن عبد الحليم بن محمد ابن تيمية الحنبلي الدمشقي(ت 728هـ)، **منهاج السنة النبوية في** نقض كلام الشيعة القدرية، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود، تحقيق محمد رشاد سالم، 1986، 4 ص 377، 427، 428، 429،431، 467؛ ج 6 ص 184.

[5] - ابن تيمية، نفس المصدر، 6 ص 234، 235.

[6] - ابن تيمية، نفس المصدر، 6 ص 231، 232: " فلَمْ يَكُنْ مِنْ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ مَلِكٌ خَيْرٌ مِنْ مُعَاوِيَةَ، وَلَا كَانَ النَّاسُ فِي زَمَانِ مَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ خَيْرًا مِنْهُمْ فِي زَمَنِ مُعَاوِيَةَ، إذَا نُسِبَتْ أَيَّامُهُ إِلَى أَيَّامِ مَنْ بَعْدَهُ".

[7] - "... وَلِهَذَا يَقُولُ مَنْ يَقُولُ مِنَ السَّلَفِ: غُبَارٌ دَخَلَ فِي أَنْفِ مُعَاوِيَةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) أفضَلُ مِنْ عَمَلِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ"، ابن تيمية، نفس المصدر، 6 ص 226، 227.

أحداث زمن خلافته بمقتل عثمان وما خلفته الفتنة الكبرى، ومع هذا تمسك بكون معاوية أحرص معاصريه على السلام[1].

ومن الطبيعي أن يصل ابن تيمية في محصلة موقفه إلى الدعوة إلى عدم الاستنقاص من شرعية معاوية، ونبهَ إلى أن تشكيك بعض فرق الشيعة في شرعية أبي بكر وعمر وعثمان قد يبرر عدم اعتراف أنصار الأمويين بشرعية علي بن أبي طالب سيما أن هذا الأخير لم يحض بإجماع المسلمين بينما حظي معاوية بذلك سنة الجماعة (مذهب أهل الأندلس والمغرب)[2].

وبعد ابن تيمية بثلاثة أرباع القرن توج ابن حجر الهيتي المصري هذا الموقف الداعم لمعاوية: فألف كتيبا تصدى فيه، بأسلوب الفقيه، لثلب معاوية بن أبي سفيان من خلال تجديد التأكيد على إسلامه عام الحديبية، أي قبل فتح مكة، وتناولِ "فضائله ومناقبه وخصوصياته وعلومه واجتهاده" من خلال استعراض أحاديث وشهادات تثني عليه[3]. كما خصص الهيتي فصلا لرد الطعون الموجهة لمعاوية ولاسيما إيجاد المبررات خروج معاوية عن علي بن أبي طالب أثناء الفتنة الأولى. وأنهى الكتاب بباب حمل فيه الخوارج مسؤولية ما حصل من اضطراب إثر معركة صفين ثم بعد عام الجماعة[4].

2- صورة معاوية بين كتب الطبقات والتراجم والمصادر التاريخية :

2-1: تباين في المحتوى:

بداية، من المفيد التنويه إلى أن الإطار الذي نشأت فيه الكتابة التاريخية عند المسلمين في القرن الثالث على الأرجح جعل منها تركز على الحدث بحد ذاته، وستتواصل هذه الخاصية لعدة قرون. ولذلك اهتم مختلف مدوني الخبر التاريخي على تتناول دور معاوية في الأحداث ولم يركزوا على ما هو شخصي إلا نادرا. وكان من نتائج ذلك الإقرار بدوره الحاسم في أكثر من منعرج في التاريخ الإسلامي سواءً أثناء ولايته للشام أو بعد توليه الخلافة؛ كما تعترف أغلب المصادر بكفاءته السياسية التي يُعبر عنها بعته بالحليم، وهي كلمة معقدة وشاملة في معناها حسب تعبير عبد الحي شعبان[5] لكنها تعبر عن إقرار بمقدرة معاوية القيادية وعلى حنكته في مواجهة أزمات دولة

---

[1] - ابن تيمية، نفس المصدر، 6 ص 247: "مُعَاوِيَةُ كَانَ خَيْرًا مِنَ الأشتر النَّخَعِيِّ، وَمِنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، وَمِنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَمِنْ أَبِي الأعور السُّلَمِيِّ، [وَمِنْ هَاشِمِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ هَاشِمٍ الْمِرْقَالِ، وَمِنَ الأشعث بْنِ قَيْسٍ الْكِنْدِيِّ، وَمِنْ بُسْرِ بْنِ أَبِي أَرْطَاةَ، وَغَيْرِ هَؤُلاءِ مِنَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ وَمَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ"

[2] - ابن تيمية، نفس المصدر، 4 ص 162.

[3] - ابن حجر الهيتي (ت 1565/973) ، **تطهير الجنان واللسان عن ثلب معاوية بن أبي سفيان**، طنطا، دار الصحابة للتراث 1992، ص 38 وما بعدها، ص 44 وما بعدها.

[4] - ابن حجر الهيتي، نفس المصدر، 102 وما يليها.

[5] - محمد عبد الحي شعبان، **صدر الإسلام والدولة الأموية 600- 750م/132 هـ**، بيروت الأهلية للنشر والتوزيع 1986، ص 90.

مازالت لم تتعاف من مخلفات حرب أهلية وتعاني من تناقضات متنوعة وتستند في ذات الوقت إلى قاعدة قبلية وخلفية تيوقراطية.

ويأتي هذا الاعتراف هذا بوضوح في جل المصادر التي وصلتنا، باعتبار أن العدد الأكبر من مدونيها هم من المحسوبين على المذهب السني، أين تبدو صورة معاوية إيجابية سواءً جاءتْ مُقتصرةً مقتضبة كما هو الأمر في تاريخ ابن خياط والمحبر لابن حبيب (ت 245/ 861) والمعارف لابن قتيبة الدينوري (ت 276/ 889) والمعرفة والتاريخ ليعقوب الفسوي الفارسي (ت277/ 890) والأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري (ت 282/ 895) أو طويلة مفصلة كما في تاريخ الطبري (ت 310/ 922) والمنتظم لابن الجوزي (ت597/ 1201) والكامل لعز الدين بن الأثير(ت 630/ 1232) وغيرها. وتنطبق نفس الملاحظة على كتب الأنساب، إذْ تُعتبر إشارة مصعب الزبيري(ت 236/ 850) إلى إسلام معاوية عام "عمرة القضاء"، أي قبل فتح مكة، متفقة مع ما تنسبه كتب الطبقات لمعاوية ذاته في ذلك الشأن[1]. أما صورة معاوية في كتاب الأنساب أشراف للبلاذري(ت 892/279) والمعروف بولائه للعباسيين فهي تبدو مضيئة إلى حد بعيد، فكان القسم الذي خصصه لأخباره هو من بين الأوسع في كتاب أنساب الأشراف ويبدو من خلاله معاوية مرادفا لصفات الحكمة والحِلم والذكاء والكرم والمروءة[2].

وتصح المُلاحظة السالفة حتى على المؤرخين المُصنفين ضمن المناصرين للشيعة: فرغم تصريح بعضهم بتبني موقف مساند للعلويين في صراعهم مع الأمويين، فلا تبدو رواياتهم متشنجة وعدوانية تجاه معاوية. نلحظُ ذلك بجلاء حتى لدى مَنْ شكك منهم صراحة في شرعية حكم معاوية مثل نصر ابن مزاحم واليعقوبي أوالمسعودي. فقد اعتمد نصر بن مزاحم (ت212/ 827) في روايته لوقعة صفين[3] روايات عراقية مساندة لعلي (سيف بن عمر والشعبي وأبي مخنف الأزدي) ومع ذلك هناك إقرار بكفاءة معاوية السياسية والعسكرية وبقدرته على تجنيد الحلفاء (نجاحه في ضمان مساندة عمرو بن العاص والكثير من زعامات الشام وفي مقدمتهم شرحبيل بن السمط) واستغلال مواطن ضعف الخصم باستمالة بعضهم (نجاحه في استمالة رسول علي إليه جرير بن عبد الله البجلي) أو العمل على تحييد أكثرهم تأثيرا (مراسلاته مع عبد الله بن عباس) والقدرة على المناورة.

أما اليعقوبي الذي استعمل في تاريخه[4] مصطلح "أيام معاوية" كتعبير عن عدم الاعتراف بشرعية خلافته وركز على الصد الكبير الذي لقيته بيعته من

---

[1] - مصعب بن عبد الله الزبيري (ت 236)، نسب قريش، القاهرة، تحقيق ليفي بروفنسال، مكتبة المعارف، د. ت.، ص 124.

[2] - أحمد بن جابر البلاذري، أنساب الأشراف، بيروت، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، دار الفكر 1996، ج 5 ص 21-167

[3] - نصر بن مزاحم المنقري، وقعة صفين، بيروت، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل 1990.

[4] - أحمد بن جعفر بن واضح اليعقوبي (ت292/ 905)، تاريخه، ليدن، مطبعة بريل 1883.

لذُن الصحابة وكرر استعمال نعوت مشينة عند الحديث عنه من قبيل" ابن الطليق" و"ابن آكلة الكلاب" واتهامه (على لسان ابن عباس) بالمساهمة في قتل عثمان وكذلك "استصفاء" أموال الناس لنفسه، فإنه لم يجد اليعقوبي بُدا من الاعتراف بالنجاحات الكبرى التي تحققت للمسلمين خلال فترة حكمه وذلك بفضل حلمه وذكائه السياسي وبفضل اعتماده على ولاة وموظفين أكفاء. وسار المسعودي (ت957/346) على نفس منهج اليعقوبي تقريبا، إذْ تحدث عن "خلافة" الحسن بن علي التي لم تتجاوز ستة أشهر بينما اقتضب "أيام" معاوية التي تواصل أكثر من عشرين سنة في بعض السطور، ومع ذلك فقد أقر بكفاءته السياسية وقدرته على
إدارة شؤون الدولة بما يتوفر لديه من حنكة و" رأى وحزم في أمر دنياه"[1]
ونرصدُ في المصادر التاريخية أوجه اختلاف أخرى في تناول مسائل متعلقة بمعاوية مقارنة بما يأتي في كتب الطبقات والتراجم، مثل تاريخ انخراطه في الدين الجديد وعلاقته بكل من عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز، وهما رمْزا العدل في مخيال المسلمين.

انطلاقا مما جاء في الفصل الأول من هذا البحث، تلتقي جل كتب الطبقات والتراجم في أن معاوية قد أسلم أثناء صلح الحديبية في السنة السادسة بعد الهجرة أو"عام القضية" المعروفة أيضا بعمرة القضاء في السنة التي تلتها، لكنه أبقى قناعته تلك سرية إلى ما بعد فتح مكة بسبب إدراكه لتبعات ذلك على علاقته مع أسرته[2]. غير أن هذا الخبر يتقاطع مع ما يجيءُ في مُجمل المصادر التاريخية. فلئن ساق البلاذري رواية قد يُفهم منها إسلام معاوية قبيل فتح مكة[3] إلاّ أنّ جُلّ مؤرخي العصر الوسيط الأعلى لم يتعرضوا إلى المسألة كما فعل ابن خياط والطبري وأبو حنيفة الدينوري أو صرحوا بأن إسلامه لم يحصل إلا بعد سيطرة المسلمين على مكة في السنة الثامنة للهجرة كما فعل ابن قتيبة الدينورى والمُطهر المقدسي[4].

---

[1] - علي بن الحسين المسعودي، التنبيه والأشراف، القاهرة، دار الصاوي، د. ت.، تحقيق عبد الله بن إسماعيل الصاوي، ص 261، 262.

[2] - البغوي، معجم ، ج 5 ص 363؛ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، معرفة الصحابة، الرياض، ت عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، 1998، 5 ص 2496؛ نقل ابن عساكر: "لما كان عام الحديبية وصدت قريش رسول الله (ص) عن البيت ودافعوه بالراح وكتبوا بينهم القضية وقع الإسلام في قلبي فذكرت ذلك لأمي هند بنت عتبة فقالت إياك أن تخالف أباك أو أن تقطع أمرا دونه ... فأسلمت وأخفيت إسلامي فوالله لقد رحل رسول الله (ص) من الحديبية وإني مصدق به وأنا على ذلك أكتمه من أبي سفيان ... وعلم أبو سفيان بإسلامي فقال لي يوما لكن أخوك خير منك وهو على ديني فقلت لم آل نفسي خيرا قال فدخل رسول الله (ص) مكة عام الفتح فأظهرت إسلامي"، تاريخ دمشق، ج59 ص 67-68.

[3] - أحمد بن يحيى البَلاذُري، أنساب الأشراف، بيروت، دار الفكر ، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، 1996، 5 ص 21.

[4] - ابن قتيبة الدينوري(ت 276)، المعارف، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1992، تحقيق ثروت عكاشة، ص 349؛ المطهر المقدسي (ت 355)، البدء والتاريخ، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، د. ت.، ج 5 ص 108.

وتنطبق الملاحظة السابقة على المؤرخين المسلمين في الفترة الوسيطة المتأخرة. فحتى ابن كثير، ورغم انتمائه الحنبلي المدافع بقوة عن معاوية والذي خصص له ترجمة طويلة وأعاد تدوين الكم الهائل من الروايات التي تستعرض فضائله الواردة في كتب الطبقات وفي تاريخ دمشق، فقد نقل روايتيْن متعارضتيْن في شأن تأريخ إسلام معاوية تذهب الأولى إلى أنه أسلم "ليلة الفتح" والثانية "يوم عمرة القضاء"[1]

ولا يختلف الحال لدى رواة السيرة. إذْ لم يتعرض محمد بن إسحاق وابن هشام وابن حبان البُستي وابن حزم الأندلسي وابن كثير في سيرهم إلى تأريخ إسلام معاوية، بينما صنف السهيلي الذي عاش في القرن السادس للهجرة معاوية ضمن كتبة الوحي بعد عام الفتح وهو ما يوحي ربما بإسلامه بعد ذلك الحدث[2].

وفي الواقع علينا أن نُنبه إلى أمريْن، أولهما أن خبر إسلام معاوية سنة صلح الحديبية، أي سنتيْن قبل فتح مكة هو من روايته هو ذاته، أما الأمر الثاني فهو تقديرنا أن ما يأتي في كتب التاريخ حول هذه المسألة (إسلام معاوية سنة الفتح) يبدو منطقيا أكثر بالنظر إلى الحالة العامة التي كانت تعيشها مكة والوضع الخاص لمعاوية ذاته. فلئن مثل صُلح الحديبية مُنعرجا رئيسيا في علاقة المسلمين بالقرشيين بما أنه نصّ في أحد بنوده على السماح لمن يُريدُ الدخول في "عهد محمد" القيام بذلك والعكس صحيح، وقد انضم بالفعل إلى المسلمين مباشرة بعد ذلك عدد من الخزاعيين ومن الشخصيات الاعتبارية القرشية[3]، فقد مثلت مكانة معاوية الاجتماعية عائقا (ولو مؤقتا) يمكن أنْ يحول دون انخراطه الصريح في الدين الجديد سنتيْن قبل سقوط مكة. فإذا كانت مكة أهم قلعة في مواجهة النظام الجديد الذي يودّ محمد تركيزه ولم يكن أمام ماسكي السلطة فيها من خيار غير الوقوف في وجه الدين الجديد فإن معاوية هو نجل أبرز زعاماتها (أبو سفيان بن حرب) بعد معركة بدر؛ ولذا فإن إسلامه سيُعتبر لا محالة إهانة لعشيرته وبيته. وتُدللُ الروايات التي تذكر نيته إعلان إسلامه أثناء صلح الحديبية على ذلك حين تنقل التهديد الذي تلقاه من أمه في حال التصريح، والذي قد يصل إلى حد الحرمان من القوت[4].

---

[1] - إسماعيل بن كثير (ت 774/ 1372)، البداية والنهاية، بيروت، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان 1997، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، ج 7 ص 146، 457.

[2] - عبد الرحمن السهيلي(ت 581)، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، بيروت، دار إحياء التراث العربي، تحقيق عمر عبد السلام السلامي، 2000، ج 7 ص 68.

[3] - صالح أحمد العلي، الدولة في عهد الرسول، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي 1988، المجلد الأول ص 259.

[4] - أوردَ ابن عساكر " قال معاوية بن أبي سفيان لما كان عام الحديبية وصدت قريش رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن البيت ودافعوه بالراح وكتبوا بينهم القضية وقع الإسلام في قلبي فذكرت ذلك لأمي هند بنت عتبة فقالت إياك أن تخالف أباك أو أن تقطع أمرا دونه فيقطع عنك القوت"، تاريخ دمشق، ج 59 ص 67.

وفي خصوص المفاضلة بين معاوية والعمريْن: تردُ في كتب الطبقات والتراجم روايات عديدة تشترك في إشادة عمر بن الخطاب بذكاء معاوية وحنكته وقدراته المهمة في مواجهة التحديات؛ فبحسب تلك الروايات فإن قناعة الخليفة الثاني بكفاءة معاوية وذكائه هي التي جعلته يدافع عن قراره توليته (معاوية) بلاد الشام بعد وفاة أخيه يزيد رغم حداثة سنه. ولنفس تلك القناعة احتج عمر على الساعين للنيل من معاوية بحنكته السياسية ودهائه وأنه " من يضحك فِي الغضب، ولا ينال مَا عنده إلا على الرضا، ولا يؤخذ مَا فوق رأسه إلا من تحت قدميه" وهو بذلك يستحق لقب "فتى قريش"[1].

ويجد الباحث إشارات عديدة في ذات الاتجاه بالمصادر التاريخية المتقدمة منها والمتأخرة، وهي لا محالة ليستْ غير اعتراف لنجاح معاوية في إعادة توحيد الدولة الإسلامية بعد أزمة الحرب الأهلية الأولى وتغلبه على التناقضات المختلفة ومؤشرٌ على ما قام به من إنجازات شملتْ مختلف القطاعات وما صلت إليه الخلافة في عهده من تنظيم. وفي هذا الخصوص، نلحظُ أن هناك تناسقا بين ما يأتي في كتب الطبقات والتراجم وما يجئُ في مصنفات التاريخ المختلفة حول تجديد عمر بن الخطاب الثقة في معاوية كواحد من القادة العسكريين في بلاد الشام وكذلك حول تعيينه لاحقا واليا على هذا الإقليم إثر وفاة واليه الأول، أخوه البكر يزيد. وهي سياسة قد تُفهم بحرص الخليفة الثاني على ضمان انسجام القيادات العسكرية في الجبهة الشمالية وكذلك بعدم حصول مجابهة مباشرة بين الطرفين في السابق من زمن الدولة الإسلامية، مثلما وقع بين عمر وخالد بن الوليد[2]. كما أنه من غير المُستبعد أن يكون الموقف الإيجابي للخليفة إزاء معاوية قد تأثر إلى حد معين بتطور العلاقة بين التكتلات العشائرية المكية خلال السنوات الأولى من الفترة المدنية حين تقاربت مصالح عشيرة عدي التي ينحدر منها عمر من عبد شمس التي ينتمي إليها أبو سفيان وأبناؤه واتفقتَا على ضرورة التصدي للدين الجديد. ويجب أن نستحضر هنا أن عمرا كان هو زعيم عشيرته قبل أن يُسلم في السنة السادسة للهجرة حسب أغلب الروايات في حين كان أبو سفيان الشخص المُقدم في عبد شمس.

لكن انسجام الروايات الواردة في كتب الطبقات والتراجم مع نظيرتها في كتب التاريخ عند الحديث عن علاقة معاوية بعمر بن الخطاب ليس قارا وعلى نفس تناسق المسائل المُشار إليها سابقا (تولية معاوية على الشام). ففي

---

[1] - البغوي، نفس المصدر، 5 ص 367؛ أبو نعيم الأصفهاني، معرفة الصحابة، 5 ص 2496؛ ابن عبد البر القرطبي، الاستيعاب، مجلد 3 ص 1416؛ ابن عساكر، تاريخ بغداد، 59 ص 112، 113، 114؛ ابن الأثير، أسد الغابة، 5 ص 201.

[2] - حول تطور العلاقة بين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد يمكن مراجعة: ابن سعد، الطبقات، 3 ص 215؛ الطبري، تاريخ، 3 ص 392، 336، 337، 434، 435؛ ج 4 ص 66، 67؛ محي الدين لاغة، معركة اليرموك في مصادر القرون الثلاثة الأولى نموذجا، موارد، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، عدد 8 سنة 2003، ص 267- 317.

إطار استعراض إعجاب عمر بفطنة معاوية وسرعة بداهته نقل كلٌّ مِنْ ابن عبد البر وابن عساكر[1] حيثيات ما جرى من حوار بين معاوية والخليفة عمر عند تحول هذا الأخير لتفقد أحوال الشام. وبطبيعة الحال لم تحدد تلك الروايات تاريخا لذاك اللقاء لكنها توقفت عند مظاهر العظمة والأبهة التي صاحبت الاستقبال وهو ما أثار احتجاج عمر، غير أن معاوية علّل ذلك بضرورات الحكم في بلاد الشام وبمصلحة الدولة. وينتهي الخبر بقبول الخليفة وجْهة نظر واليه والتسليم بقدرته على الإقناع.

إن ما يعنينا هنا ليس ما يُتداول عن مساعي معاوية تركيز تقاليد في الحكم غريبة عن المألوف في الوسط العربي البدوي وتحاكي نمط الحكم البيزنطي[2]، وهو ما عرضه إلى تهم مختلفة من قبيل تأسيس نظام قيصري أو هرقلي، بقدر حصول الحدث في ذاته؛ وبصورة أخرى التساؤل عما إذا قد حصل فعلاً لقاءٌ بين معاوية وعمر في بلاد الشام ؟ الإجابة التي تقدمها كتب التاريخ والفتوح هي أن عمر انتقل إلى الشام أربع مرات، مرتيْن خلال السنة السابعة عشرة ومثلها في السنة التي تلتها لكن لم يلتق في أي منها معاوية[3]. وتتواتر، بالفعل، المعلومة التي تُفيد احتجاج الخليفة عمر على الأمراء الذين استقبلوه في الجابية أو في مواضع أخرى على مظاهر البذخ التي لم يعهدها منهم لكن هؤلاء الأمراء حسب ابن شهاب الزهري هم أبا عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة، وبالتالي لم يكن معاوية من ضمنهم[4].

وهنا يتبادر السؤال حول الدواعي التي تجعل مُدوّني الطبقات والتراجم يصرون على إدماج معاوية؟ قد تكمنُ الإجابة في رواية تذكرها كتب الطبقات والتراجم أيضا وتنسب فيها إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب القول بأن معاوية أكثر كفاءة حنكة وقدرة على إدارة الشأن السياسي(هو"أسود") من كل خلفاء الدولة الإسلامية السابقين بمن فيهم عمر بن الخطاب [5]. ولأن مصدر هذا الخبر هو نجلُ عمر ذاته فإن في ذلك اعترافا بنوع من العُلوية لمعاوية مقارنة بابن الخطاب المشهود له بصرامته وحنكته؛ ومن هناك يتحول حدث لقاء الخليفة بمعاوية في الشام والذي أقر فيه بكفاءة معاوية

---

[1] - ابن عبد البر، نفس المصدر، 3 ص 1416؛ ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 113، 114.

[2] - Wiet G., L'empire néo-byzantin des omeyyades et l'empire néo-sassanide des abbassides, *Cahier de l'histoire mondiale,* vol. 1, n° 1, juillet 1953, pp. 64-71.

[3] - الطبري، تاريخ، 4 ص 60.

[4] - الطبري، تاريخ، 4 ص 56، 57؛ محمد بن عمر الواقدي، فتوح الشام، بيروت، دار الكتب العلمية 1997، 1 ص 229؛

[5] - البغوي، نفس المصدر، 5 ص 369؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، 3 ص 1418؛ ابن عساكر، نفس المصدر، ج59 ص 172، 173: " قال ابن عمر ما رأيت أحدا بعد رسول الله (ص) أسود من معاوية فقيل له هو أسود من أبي بكر قال كان أبو بكر خيرا منه وهو أسود من أبي بكر قيل فعمر قال كان عمر خيرا منه وهو أسود من عمر قيل فعثمان قال كان عثمان خيرا منه وهو أسود من عثمان"

إطارا تاريخيا ملائما لدعاية سياسية تخدم صورة معاوية ومن خلاله الأمويين.

في نفس السياق لم يقف سعي بعض الروايات في كتب الطبقات والتراجم عند إثارة موضوع المفاضلة بين معاوية وعمر بن الخطاب بل تعداه لإثبات أولويته على عمر بن عبد العزيز.

فقد نقل كل من الخطيب البغدادي وابن عساكر رواية مفادها أن معاوية بن أبي سفيان أفضل من عمر بن عبد العزيز[1]؛ وبطبيعة الحال تنسحب هذه الأفضلية على باقي الخلفاء الأمويين وذلك لما لعمر بن عبد العزيز من مكانة في المخيال العربي الإسلامي تجعل البعض يرتبه خليفةً راشديا[2].

لا شك أن لهذه الموازنة بين هذيْن الخليفتيْن ما يبررها سياسيا، إذْ وبصرف النظر عن التقييمات المختلفة للعصر الأموي فإننا نلحظ شبه إجماع بين دارسي تلك المرحلة على اعتبار كل منهما من بين أهم خلفائها، إن لم يكونا أبرزهم، نظرا لما أنجزه كل واحد منهما لفائدة الدولة القائمة[3]. فقد ناضل معاوية من أجل إعادة توحيد الدولة الإسلامية ثم من أجل تعزيز سلطة مركزية قوية في ظل احترام القوى القائمة والتوازنات القبلية، ونجح إلى حد بعيد في مواجهة التحديات الداخلية المُختلفة، كما استأنف حملات الفتوح في مختلف الجهات الأمر الذي مكن من توفير مداخيل طائلة كانت ضرورية للاستجابة لحاجيات الدولة ولاسترضاء المعارضين وكسب ولاء شيوخ القبائل. أما عمر بن عبد العزيز فقد كان هو أيضا مناضلا لكن من أجل المحافظة على وحدة الدولة التي بدأت تتآكل تحت وطأة التناقضات المختلفة وضغط قوى المعارضة. في ذاك الإطار اتبع سياسة ترمي إلى إرساء نوع من التوازن تحاكي سياسة معاوية إلى حد ما. فقد اتخذ جملة من الإجراءات للحد من الامتيازات التي كانت ممنوحة لآل موان وانتهج سياسة متوازنة إزاء التكتلات القبلية الفاعلة في محاولة منه لتعديل سياسة سلفه سليمان الذي اعتمد بدرجة كبيرة على القبائل اليمانية الأمر الذي ألب عليه نظيرتها القيسية. ولئن أوقف حملات الفتح في الشرق وسحب الوحدات العسكرية من

---

[1] - " حَدَّثَنا رَبَاحُ بْنُ الجَرَّاح المَوْصِلِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلا يَسْأَلُ المُعَافَى بْنَ عِمْرَانَ، فَقَالَ: يَا أَبَا مَسْعُودٍ أَيْنَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ مِنْ مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَانَ؟ فَغَضِبَ مِنْ ذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا، وَقَالَ: لا يُقَاسُ بِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ (ص) أَحَدٌ، مُعَاوِيَةُ صَاحِبُهُ وَصِهْرُهُ وَكَاتِبُهُ وَأَمِينُهُ عَلَى وَحْيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص): " تاريخ بغداد، 1 ص 577؛ ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 207، 208

[2] - عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، عمر بن عبد العزيز معالم التجديد والإصلاح الراشدي، مصر، دار التوزيع والنشر الإسلامية 2006.

[3] - Hawting G. R., *The First dynasty of Islam, The Umayyad Caliphate AD 661- 750*, London 1986

واستعرض كلود كاهن أبرز الأبحاث المتصلة بالفترة الأموية حتى بداية ثمانينات القرن الفائت في كتابه: Cahen Cl., *Introduction à l'histoire du Monde Musulman Médiéval, VIIe – XVe siècle, méthodologie et éléments de bibliographie*, Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient, A. Maisonneuve 1982, p. 127-131.

التراب البيزنطي فقد أطلق إصلاحا ضريبيا ضَمِن في ذات الوقت التخفيف من تبعات توقف تلك الحملات وخاصة تخفيف الضغط على المسلمين من غير العرب وضيق الفوارق بين مسلمي العهد الأول واللاحقين.

مع ما تقدم، تبقى الإشارة إلى أن رواية تفضيل معاوية على عمر الثاني لا تأتي في المصادر التاريخية. إن الصورة التي تقدمها لنا هذه المصادر هي أن ابن عبد العزيز يقف على رأس سلسلة خلفاء بني أمية بفضل ورعه المُفرط والذي أهله للقيام بإصلاحات عميقة وذات معنى رغم قصر مدة حكمه؛ وحتى الإشارة إلى قرار الخليفة إبطال عادة لعْن علي بن أبي طالب على المنابر فإنها لم تردْ إلا في بعض المصادر المتشيعة وتُذكر في إطار تعداد محاسن سيرته الهادفة إلى كسب تعاطف الشيعة[1]. ويجرنا التحليل السابق إلى افتراض كون قضية تفضيل معاوية على عمر بن عبد العزيز في كتب الطبقات والتراجم ليستْ في النهاية غير تعبير عن صراع سياسي مذهبي يتمثل في استغلال اعتراف خصوم الدولة الأموية بالصورة المضيئة لعمر الثاني لفائدة معاوية ليصبح أفضل من الفاضل(عمر بن عبد العزيز). وما قد يدعم ذلك هو أن الرواية المذكورة أعلاه جاءتْ فريدة وترقى إلى محدث شامي، هو المُعافى بن عمران، المتوفى في نهاية القرن الثاني للهجرة والذي حدث لفترة طويلة بالموصل والرقة[2] وربما في دمشق كذلك بما أن ابن عساكر ذكره بين محدثيها في أكثر من موضع.

وهناك مُعطًى آخر يؤكد أنّ لتقديم معاوية على عمر بن عبد العزيز بُعدا سياسيا أكثر منه تاريخيّا، ويتمثل في اعتبار صحبته للرسول مقياسا وحيدا لتفضيله على عمر الثاني. وإذا كان مفهوم الصحابي فضفاضا بما أنه يشمل كل من لقي النبي لقاء ماديا وتأثر به أو روى عنه أو حارب معه[3]، فهو بالضرورة ينطبق على معاوية الذي ربطته بالرسول علاقة مصاهرة (هو أخ أم حبيبة زوجة الرسول) وكان أحد كتبة الوحي. وعلى كل حال فلقد مثلت الصحبة أبرز مقياس للتشريف طوال قرون من التاريخ الإسلامي لدى مختلف المدارس الفقهية وخاصة الحنابلة.

2-2: الــروايـــة المُعتَمَدَة في كتب الطبقات في خدمة معاويـــة:

للوقوف على خلفية تطور صورة معاوية في كتب الطبقات والتراجم يُستحسن الرجوع إلى مواردها وهو ما يقتضي تتبع سلسلة الأسانيد. وبسبب

---

[1] - بقطع النظر عن مدى صحة مسألة قرار معاوية لعن علي بن أبي طالب من عدمها بما أن ذلك الخبر لم يرد في غير المصادر المتشيعة للعلويين، منها: اليعقوبي، تاريخ، 1 ص 233؛ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2 ص

[2] - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 15 ص 303.

[3] - محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، بيروت، مكتبة لبنان، 2 ص 1060؛ محمد بن علي الجرجاني، كتاب التعريفات، القاهرة، مكتبة الفضيلة، تحقيق محمد الصديق المنشاوي، ص 113.

كثرة الروايات ولأن هذه السلسلة قد تكون طويلة جدا لا سيما في المصادر المتأخرة (مثل تاريخ دمشق لابن عساكر)، نكتفي في هذا البحث ببعض النماذج منها:

يُلاحظُ أنّ أبرز سمة في شأن موارد الأحاديث التي تمتدح معاوية هو اعتمادها على أسانيد أصيلة بلاد الشام أو تأثرتْ بمحدثيه بصورة أو بأخرى. وترْقى الأحاديث التي تدعو لمعاوية[1] إلى عبد الأعلى بن مسهر الغساني، المعروف **بأبي مسهر** (ت سنة 218/ 833)، والذي تولى قضاء دمشق وصفه ابن عساكر بشيخ الشام في إشارة لمعرفته الواسعة بالمغازي والأنساب. وهناك إشارات عديدة على أنّ علاقته بالعباسيين كانت سيئة إذْ امتحنه المأمون وسجنه بسبب معارضته للتصور الاعتزالي في مسألة خلق القرآن وهو مؤشرٌ قويٌّ على التزامه السني من جانب وعلى تبنيه لموقف شامي مازال مواليا للأمويين. وما يدعم هذا الافتراض هو ما يُذكر عن علاقة أبي مسهر المتينة بأحمد بن حنبل بما أنهما كانا يتبادلان المراسلات[2].

وروى أبو مسهر الأحاديث السابقة عن **سعيد بن عبد العزيز** بن أبي يحيى التنوخي الدمشقي المتوفى في بداية النصف الثاني من القرن الثاني، وقد اعتُبر من أبرز محدثي الشام. وينسبُ له ياقوت الحموي كتابا في التاريخ جمع ابن عساكر أخباره في كتاب سماه بعنوان"كتاب أخبار أبي محمد بن عبد العزيز وعواليه"[3]. وقد أطنب ابن عساكر في مدحه واعتبره فقيه أهل دمشق ومفتيهم بعد الأوزاعي. وترقى رواياته إلى ابن شهاب الزهري وإلى كثير من الشاميين منهم ورَبِيعَة بْن يَزِيد خاصة وروى عنه الثوري وشعبة وابن المبارك وأبو حيوة وأبو مسهر[4].

وبدَوْره نقل سعيد بن عبد العزيز الأحاديث المعنية عن **رَبِيعَة بْن يَزِيد** الأيادي الدمشقي. وهو تابعي عده ابن خياط ضمن الطبقة الثالثة، قتل بأفريقية في خلافة هشام مع غزوة كلثوم بن عياض القشيري سنة 123. وروى ربيعة أخباره عن كثير من الشاميين أيضا، أبرزهم أبو إدريس الخولاني وعبد الله بن حوالة وجبير بن نفير و**عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمِيرَةَ الأزدي المزني**[5]. وعبد الرحمن الأزدي هذا، الذي يمثل أعلى سلسلة الإسناد، هو كذلك من المحدثين الشاميين. وحسب تسلسل الإسناد فقد سمع رواية الحديث الذي يدعو فيه الرسول لمعاوية من معاوية بن أبي سفيان ذاته. وإن لم يشكك أي واحد من

---

[1] - من قبيل:" اللهم علمه الحساب والكتاب وقه العذاب" و" اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا وَأَهْدِهِ وَاهْدِ بِهِ" و" اللهم أهده بالهدى وجنبه الردى واغفر له في الآخرة والأولى"، الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، 1 ص 574؛ ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 69، 82.

[2] - البخاري، نفس المصدر، ج6 ص 73؛ ابن سعد، نفس المصدر، 7 ص 328؛ ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، 33 ص 421-444.

[3] - ياقوت الحموي، معجم المؤلفين، 4 ص 1700.

[4] - ابن عساكر، نفس المصدر، 21 ص 193- 213؛ ابن حجر، **التهذيب**، 4 ص 59-61.

[5] - ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن أبي حاتم(ت 327)، **الجرح والتعديل**، بيروت، دار إحياء التراث العربي1952، ج3 ص 474؛ ابن عساكر، نفس المصدر، 72 ص 192- 200

نقاد الحديث في أصل متن الخبر فإن حكم ابن الأثير على حامله (ابن عَميرة) بنقل أحاديث مضطربة[1]، قد يعني اتهاما ضمنيا بوضعه الحديث دعاية لمعاوية.

وأوردَ البغوي نفس الأحاديث عن سند شامي آخر: يبدأ **بمعاوية بن صالح، الحضرمي** (ت158/774) وهو شامي أصيل مدينة حمص. وتُبرزُ المصادر مسألة توليه القضاء بالأندلس بعد الثورة العباسية وهو ما يفترض توليته في خطته تلك من قبل آخر الخلفاء الأمويين أو انتقاله اختيارا إلى الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية، وهو في كلتيْ الحالتيْن ما قد يكون مؤشرا على ولائه لأسرتها[2]. وروى الحضرمي عن عدد كبير من الدمشقيين منهم ربيعة بن يزيد وعمير بن هانئ العنسي والأوزاعي **ويونس بن سيف الخزاعي**. ولا تذكر المصادر شيئا كثيرا عن يونس،هذا الذي استند إليه معاوية بن صالح في نقل حديث دعاء الرسول إلى معاوية، غير كونه من مدينة حمص كذلك وتوفي في بداية القرن الثاني للهجرة (120/737) وروى عن محدثين شاميين معروفين في مقدمتهم أبي إدريس الخولاني[3].

ونقل يونس الخزاعي الحديث المَعني عن **الحارث بن زياد**، وهو كذلك شامي ويُفهم من سياق نص ابن عساكر انه صحابي[4]، لكن ابن حجر وابن الأثير استبعدا ذلك وذهبا إلى أن الحارث نقل الحديث المنسوب إليه عن الرسول ("اللهم علم معاوية الكتاب وقه الحساب") عن صحابة شاميين آخرين منهم أبي رهم السماعي والعرباض بن سارية السلمي[5]. وجاء كلاهما إلى الشام وعاشا فترة طويلة في ظل الدولة الأموية [6].

وجاءت في كتب الطبقات والتراجم بعض الأحاديث التي تذهبُ إلى أنّ استكتاب معاوية كان بوحي إلهي، بل يذهبُ بعضها إلى أنّ معاوية كان مؤتمنا على الوحي تماما مثل الرسول وجبريل. فقد جاء واحدٌ منها[7] برواية **الحسين بن منصور**، وهو محدث شامي مات في القرن الثالث ويُفهم من سياق تاريخ دمشق أنه كان يصرح بمساندته للأمويين مُبررا ذلك برؤيا رآها

---

[1] - ابن أبي حاتم، نفس المصدر، 5 ص 272؛ ابن الأثير، أُسْدُ الغابة، 3 ص 474، 475.

[2] - ابن سعد، الطبقات، 7 ص 361؛ ابن أبي حاتم، نفس المصدر، 8 ص 382؛ ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 44- 52.

[3] - ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة ، 11 ص 440؛ ابن الأثير، نفس المصدر، 1 ص 630/ 4 ص 325.

[4] - ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 74.

[5] - ابن حجر، الإصابة ، ج2 ص 142؛ ابن الأثير، نفس المصدر، ج1 ص 608.

[6] - ابن سعد، نفس المصدر، 7 ص 289؛ ابن أبي حاتم، نفس المصدر، 7 ص 39؛ ابن عساكر، نفس المصدر، ج 40 ص 176- 191؛ ابن حجر، الإصابة، ج1 ص 190، ج7 ص 174؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ج 3 ص 556، ج 6 ص 111.

[7] - ابن عساكر، نفس المصدر، ج 59 ص 74.

في منامه حذره فيها الرسول من لعن معوية[1]. وقد نقل الحسين بن منصور الحديث الذي يفيد باستئمان معاوية على الوحي عن شامي آخر مجهول، اسمه وضاح الأنباري، والذي رواه بدوره عن **خالد بن معدان** الكلاعي الحمصي. وهو من أبرز محدثي الشام خلال القرن الأول للهجرة (ت بين 721/103م و723/105م) ويدّعي أنه أدرك سبعين رجلا من أصحاب النبي، وكان من بين مَنْ روى عن أبي ذر وعائشة وأبي أمامة الباهلي وعبادة بن الصامت وأبي الدرداء ومعاوية بن أبي سفيان ذاته[2]. وترقى رواية ابن معدان للحديث المعني إلى الصحابي **واثلة بن الأسقع** الذي شارك الرسول بعضَ معاركه ثم انتقل إلى الشام أين شارك في بعض معارك الفتوح هناك. واستقر في دمشق إلى تاريخ وفاته بين 83هـ/ 702م و 85هـ/704م. ولا يُستبعد أن تكون علاقته بالأمويين وطيدة بما انه كان له مسجد باسمه يحدث فيه في دمشق[3].

وفي تاريخ دمشق أين تردُ أكثر الأحاديث التي تتمحور حول حب الرسول لمعاوية والتنبؤ بخلافته، يُلاحظ أن أغلبها يرقى إلى موارد شامية كذلك. فقد جاء أحدها[4] استنادا إلى سلسلة طويلة من المحدثين عاش أكثرهم بدمشق، أبرزهم أبو زرعة الدمشقي المتوفى سنة 281 للهجرة والذي يُنسبُ له كتاب "التاريخ وعلل الرجال"، ويبدو أنه لعب دورا هاما في نشر الفكر الحنبلي بالشام[5]. وما يُلاحظ أيضا هو أن أبا زرعة قد أسندَ الحديث إلى شخصيات غير معروفة جيدا أو تم تضعيفها من قبل نقاد الرواية، وهم بحسب الترتيب التنازلي في الزمن: محمد بن أحمد الضراب (غير معروف) وعلي بن جميل الرقي الذي اتهمه تقي الدين المقريزي برواية الأحاديث الباطلة وبسرقة الحديث[6]، ثم عبد الله بن واقد الحراني(ت210/826) الذي ضعفهُ الدارقطني[7].

وفي الواقع هناك أكثر من سبب قد يبرر وضع أصل الحديث الذي نتناوله موضع السؤال. أولها أن واقد الحراني أخذ الحديث عن شخص لا يُذكر كثيرا في كتب التراجم ولا في مصادر نقاد الحديث لكن يُرجح كونه بصريا تبعا

---

[1] - ابن عساكر: " كنت أبغض معاوية وألعنه فرأيت النبي (ص) في النوم كأنه دخل داري وكان في الدار حمام دخل الحمام واغتسل فلما خرج من الحمام ركب بغلته وكان بين يديه رجل قائم أصفر اللون فسلمت على النبي (ص) فقال لي يا أبا طاهر لا تلعنه ولا تبغضه قلت من هو يا رسول الله قال هو معاوية بن أبي سفيان أخي كاتب الوحي"، تاريخ دمشق، ج 59 ص 212.

[2] - ابن حجر، تهذيب التهذيب، 3 ص 118- 120؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، 1 ص 92.

[3] - ابن عساكر، تاريخ دمشق، 62 ص 343- 365؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 4 ص 410؛ خليل الصفدي، الوافي بالوفيات، بيروت، دار إحياء التراث 2000، ج 27 ص 243.

[4] - "إني أحب معاوية وأحب من يحب معاوية وجبريل وميكائيل يحبان معاوية والله أشد حبا لمعاوية من جبريل وميكائيل"، ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 90.

[5] - ابن الأثير، نفس المصدر، 2 ص 547؛ الذهبي، تذكرة، 2 ص 148؛ الزركلي، الأعلام، 3 ص 320.

[6] - تقي الدين المقريزي(ت 845هـ)، مختصر الكامل في الضعفاء، القاهرة، تحقيق أيمن بن عارف الدمشقي، مكتبة السنة 1994،ص 567.

[7] - علي بن عمر الدارقطني (المتوفى: 385هـ)، الضعفاء والمتروكون، المدينة المنورة، مجلة الجامعة الإسلامية، تحقيق عبد الرحيم محمد القشقري، 2 ص 160.

لمصادر روايته وعاش إلى بداية النصف الثاني من القرن الثاني واسمه **مبارك بن فضالة**[1]. ويتمثل ثاني الأسباب في عدم ذكر ابن فضالة لسلسلة الرواة التي حصل بها عن الحديث بدقة من إسناده الأعلى والمباشر وهو أبو عويمر بن مالك الخزرجي المعروف بأبي الدرداء؛ عِلمًا أن ابن فضالة توفي سنة 164 أو 165هـ/781م بينما توفي أبو الدرداء في حدود سنة 652/32 م أثناء خلافة عثمان بن عفان[2]. أما السبب الثالث فهو يرتبط بأبي الدرداء ذاته. صحيح أن هناك إجماع في كتب التراجم على كونه من الرواة عن النبي وأنه من الذين انتقلوا من الصحابة إلى الشام أين أصبح له تأثير بعيد في رواية الحديث، إلا أن علاقته الوطيدة بالخليفة عثمان وخاصة بمعاوية الذي ولاهُ قضاء دمشق لفترة يدفع إلى التساؤل بإلحاح عن تاريخية الحديث موضع الدرس أصلا وإذا ما لم يكن هو الذي وضعه أو نُسبَ إليه من قبل رواة لاحقين مستغلين في ذلك سمعته وسابقيته[3].

ولا يختلف الحال بالنسبة للأحاديث التي تتناول تنبؤ الرسول بمستقبل معاوية السياسي بما فيها نبوءته بحكمه للشام؛ فهي في أغلب الحالات تستند إلى رواة أصيلي الشام أو جاؤوا إليه في مرحلة من مراحل حياتهم مثل ذلك[4] الذي رواه بَحيْر بن سعيد عن خالد بن معدان ويرقى إلى الصحابي جُبَيْر بن نُفَيْر وانتقل إلى الشام وأقام في حمص[5].

ومع ما تقدم، ومع الإقرار بهيمنة الرواية الشامية، فقد ساهم بعض نقلة الحديث المحسوبين على مدرسة المدينة في تناقل الأحاديث المنسوبة للرسول والتي تمتدح معاوية بروايات عراقية/ مدينية. وأبرزُ ما يُلاحظ في تلك الواردة منها في تاريخ ابن عساكر مثلا هو كونها مُسندةً إلى موارد مجهولة أو مطعون في "عدالتها". فقد ورد حديث" اللهم أهده بالهدى وجنبه الردى واغفر له في الآخرة والأولى" عبر سلسلة طويلة من الرواة الغير معروفين لم يرد غالبهم في غير رواية ابن عساكر لهذا الحديث لينتهي إلى أبي موسى الأشعري[6].

وجاء في رواية ثانية استنادا إلى المحدث العراقي **السري بن عاصم** عن

---

[1] - ابن حجر، تهذيب التهذيب، 10 ص 28-30؛ الذهبي، تذكرة، 1 ص 149.
[2] - ابن الأثير، نفس المصدر، 6 ص 94.
[3] - ابن حجر، نفس المصدر، 8 ص 175- 177؛ الذهبي، تذكرة، 1 ص 23؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 4 ص 14؛
[4] - " ليلين بعض مدائن الشام رجل عزيز منيع هو مني وأنا منه فقال له رجل من هو يا رسول الله قال فقال رسول الله (ص) بقضيب كان بيده في قفا معاوية"، ابن عساكر، تاريخ دمشق، 59 ص 91؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 3 ص 126.
[5] - البغدادي، تاريخ دمشق، 72 ص 47؛ ابن حجر، نفس المصدر، 2 ص 64-66؛ الذهبي، تذكرة، 1 ص 42.
[6] - أحمد بن محمد بن المغيرة العباداني عن قيس بن إبراهيم بن قيس الطوابيقي عن إسحاق بن يعقوب الضرير عن أبو عامر العقدي عن الفضيل بن مرزوق عن عطية العوفي عن أبي موسى الأشعري

اثنيْن من جيل التابعين عاش كل واحد منهما ظروفا تؤشر إلى علاقاتهما الجيدة بالأمويين؛ الأول هو **عبد الله بن يحيى بن كثير** الذي ولاه الأمويون قضاء مكة إلى تاريخ وفاته سنة 120/ 738[1] وقد استند بدوره إلى **هشام ابن عروة بن الزبير بن العوام** (ت146) وكان من الذين عاقبهم أبو جعفر المنصور[2]. ولعل ملاحظة ابن عساكر عندما أورد رواية السري بن عاصم بكونه لم يروها غيره أبرز دليل على المآخذ على محتواها [3].

ولم يكن ابن عساكر الوحيدَ الذي انتقد السري بن عاصم. فقد شكك ابن كثير خلال القرن الثامن في أمانة السري عند نقله الحديث المُسند إليه والذي يفيد بأن استكتاب الرسول لمعاوية الوحيَ كان بأمر إلهي؛ بل ذهب إلى حد انتقاد ابن عساكر لإيراده هذا الحديث أصلا في كتابه دون أن يبين ضعفه وتساءل عن خلفيات ذلك[4].

وعلينا أن نلاحظ في النهاية أنّ الباحث لا يجد في الواقع قطيعة كاملة بين الرواية الشامية ونظيرتها المدينية/العراقية (بما أن عديد رواد الرواية العراقية وخاصة البصريين اعتمدوا رئيسيا على رواة المدينة)، ذلك أنّ أسانيد مصادر الخبر المتصلة بمعاوية تتقاطع في أحيان عديدة. ويجد هذا تفسيره في عاملَيْن رئيسييْن؛ أولهما أنّ عددا غير قليل من محدثي الجيل الأول الشاميين هم من الصحابة الذين انتقلوا إلى بلاد الشام إما وقتيا (ابن شهاب الزهري مثلا) أو نهائيا، والثاني هو اهتمام بعض الخلفاء الأمويين برواية الحديث، ومن بينهم عمر بن عبد العزيز وببعض فروع الرواية الأخرى مثل رواية النسب والقصَص[5].

---

[1] - ابن أبي حاتم، نفس المصدر، ج5 ص 144؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، الهند، مطبعة دائرة المعارف النظامية، ج 5 ص 366.

[2] - ابن سعد، الطبقات، 7 ص 321؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 14 ص 38-42؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، 11 ص 48-51.

[3] - علق ابن عساكر على الحديث " اللهم أهده بالهدى وجنبه الردى واغفر له في الآخرة والأولى" بالقول " لم يرو هذا الحديث عن هشام ابن عروة إلا عبد الله بن يحيى بن أبي كثير تفرد به السري بن عاصم وقد روي عن شعيب بن إسحاق عن هشام"، نفس المصدر، ج 59 ص82.

[4] - ابن كثير، البداية والنهاية، 8 ص 355، 356.

[5] - حسين عطوان، الرواية التاريخية في بلاد الشام في العصر الأموي، بيروت، دار الجيل 1986؛ محي الدين لاغة، بحث في موارد كتاب فتوح الشام للأزدي، مجلة موارد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، ، عدد 16، سنة 2011، ص 165-196.

خاتمة البحث

يطرح تحول صورة معاوية في كتب الطبقات والتراجم أكثر من إشكال: فهي مؤشر مرة أخرى على أن الرواية لم تكن بمعزل عن التجاذب السياسي والمذهبي وأن محتواها قد تأثر إلى حد بعيد بميول ناقلي الخبر؛ كما قد ارتبطت إلى حد بعيد بتطور المعرفة عند المسلمين. ففي القرن الثالث كانت السيرة والحديث هي المنطلق ومازالت الرواية في جملتها متينة الترابط بتناقل أحداث السيرة، وبالتالي مازال تناول تاريخ الأشخاص متصلا شديد الاتصال بعلاقتهم بالنبي وبأحداث صدر الإسلام. لهذا لم يتم إدماج معلومات كثيرة عن الشخصيات التي يتم الترجمة لها، وكان ذلك واضحا في طبقات ابن خياط وطبقات ابن سعد. هذا الأمر سيتغيرُ خلال المرحلة لاحقة تحول غرض الرواية تحت تأثيرات مختلفة أهمها التنافس السياسي والصراع المذهبي، وبعد أن كانت في خدمة الدين والنبوءة انزلقت تدريجيا لتصبح في خدمة الدولة مُجسدة في الخليفة أو المذهب (الماسك بالحكم أو المعارض) أو الإقليم. وقد أثر ذلك لا محالة على منهج أصحاب التراجم كما على محتوى تراجمهم. وكان من نتائج هذا إدماج المُترجم لما يرتئيه صالحا لتحقيق هدفه من وراء تلك الترجمة.

وفي الواقع علينا التسليم بأن ورودَ معلومات من هذا القبيل من شأنه أن يمس صدقية الخبر ويطبع التاريخ بما ليس تاريخي، ومع ذلك هناك اتفاق بين الباحثين على أهمية كتب الطبقات والتراجم كواحد من مصادر التاريخ الإسلامي. يبدو ذلك من مختلف أبحاث كثير من المستشرقين تناولوا الموضوع منذ نهاية القرن الفائت على غرار "هوفمنغ" في مقال له في موسوعة الإسلام و"لوث" في تقديمه لجزء من طبقات ابن سعد، و"روزنتال" ضمن بحثه حول علم التاريخ عند المسلمين؛ وكذلك من خلال باحثين عربٌ مثل أكرم ضياء العمري في تقديمه لكتاب طبقات ابن خياط أو إبراهيم الحفصي في مقال له حول المسألة صدر في العدد الثالث والعشرين من مجلة "أرابيكا".